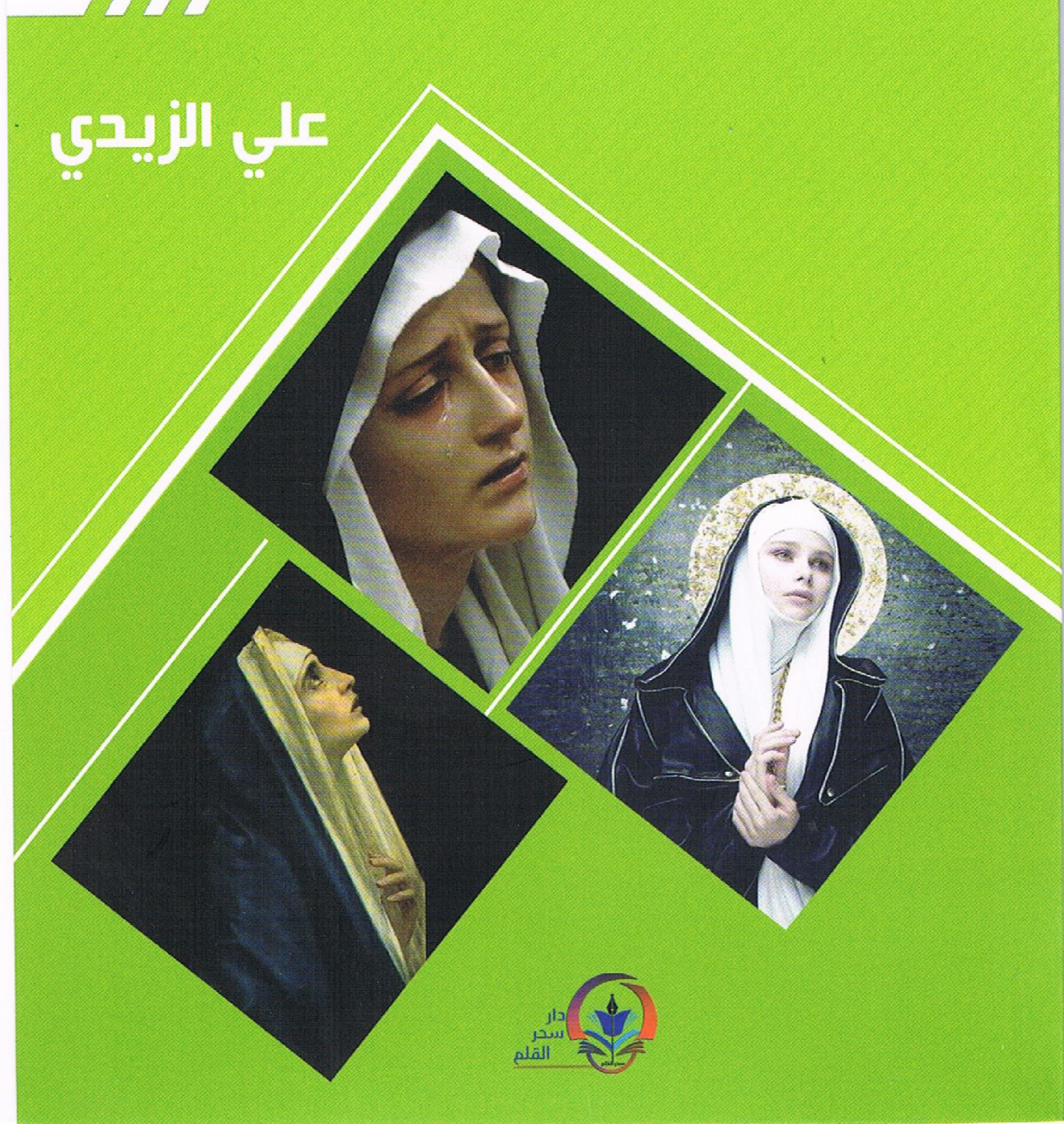
المرأة في الشرائع الكبرى

اليهودية-المسيحية-الإسلام

علي الزيدي



المرأة في الشرائع الكبرى

اليهودية-المسيحية-الإسلام

المرأة
في الشرائع الكبرى

اليهودية - المسيحية - الإسلام



علي الزيدي

المؤلف: علي الزيدي
العنوان: المرأة في الشرائع الكبرى
الناشر: دار سحر القلم
الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٤٣هـ / ٢٠٢١م

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد
٣٠١٥ لسنة ٢٠٢١

الترقيم الدولي: ISBN 978 – 9922 – 9356 – 5 - 2



توزيع:
دار الرافدين



الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

عندما نريد أن نتكلم عن المرأة، فنحن لا نتكلم عن شيء هامشي أو عن تجسد للخطيئة، كما حاولت التوراة أن تعطيها مثل هذه الصفة أو ما يشابهها. وإنّما نريد من طرح مثل هكذا موضوعات أن نبحث عن الجذور الأولى التي تم بواسطتها التلاعب بالحقائق، بل واخفائها وإبدالها بإملاءات للمخيلة فيها الشيء الكثير. و يا ليتها كانت مخيلة تنبع من حسن نية وإضفاء شيء من جمالية الحس الإنساني الذي تميز به عندما يتعامل مع مفردات الطبيعة، بصوتها الملكوتي الهادر من أصل خلقتها ووجودها الحاضر بيننا في كل حين.

لكن تقصد كتاب الشرائع الأولى عند طرحهم إياها للناس الإبتعاد عن محتواها، وكلّما تطاول الزمن كانت تلك الشرائع تفقد الشيء الكثير من بريقها ونور هدايتها،

بسبب ما يخفى منها ويضاف فيها بأيدي كهنتها ورجال دينها الذين أصبحوا هم من يصيغون عباراتها، حسب ما يناسب مصالحهم السياسية والإجتماعية، وأهواءهم النفسية. ولذلك سنثبت من خلال دراستنا هذه، بأن أول من جذر لمسألة التقليل من قيمة المرأة هم اليهود، عندما تحركوا بإتجاه ما كان سائداً بالذي تفرضه الأساطير، وبقايا الشرائع المنقرضة، التي كان لها القوّة على متخيلة تلك الأجيال من البشرية، بحيث أصبحت وكأنّها واقعًا يحسّون بتأثيره كل حين.

والشيء الملفت للنظر أنه عندما جاءت النصرانية انتهجوا نفس النهج الذي سار عليه اليهود مع المرأة، إلّا في بعض الموارد الهامشية، بالرغم من أن الأناجيل الأربعة المشهورة، لم تتعرض الى أصل خلقة المرأة من ضلع آدم الأيسر، أو خروج آدم بسببها من الجنة، كما تعلن ذلك التوراة صراحة. ولكن رسائل بولس أظهرت بعض البوادر من خلال كلمات تقلل من مكانة المرأة، فكانت هي الأساس

الذي تمسك به النصارى من منع المرأة عن كثير من حقوقها، وحبس إمكاناتها التي جبلت عليها.

وكذلك لا يختلف الحال بالنسبة الى نظرة بعض المسلمين لخلق المرأة من ضلع آدم الأيسر فتمسك هذا البعض وخصوصاً من المفسرين ورواة الأحاديث بتلك النشأة الناقصة للمرأة، تأثراً منهم بالروايات الإسرائيلية. بالرغم من أن القرآن الكريم لم يتعرض الى مسألة خلق المرأة من ضلع آدم، لا من قريب ولا من بعيد.

ولا يخفى ما لهذا الأمر من نتائج سلبية بخصوص المرأة وإخفاء دورها الفاعل في المجتمع، ولذلك كثرت الافكار والأطاريح التي نبعت من تلك الروايات المرتبطة بتوهين المرأة والإستنقاص من منزلتها، والتقليل من شأنها العقلي، بإعتبارها ناقصة عقل ودين وما شاكل ذلك من التحقيق.

وفي هذا الكتاب سنبين ما جاء بالتوراة بخصوص المرأة ونظرة اليهود لها وكيفية استغلالها وكذلك نظرة كلّ من

النصارى والإسلام لها. ومن ثم كشف عدّة مواقف للنساء في عهد التوراة والأناجيل، لم يتم التعرض لها من قبل، نظهر من خلالها قيمتها الحضورية الضرورية، ومن نفس النص الديني، بعد العناية والإلتفات الدقي عند قرائتنا للنص.

وبعد ذلك سنتعرض لأهم النظريات عن عقل المرأة ومناقشتها نقاشاً علمياً، ليكون بالتالي نقداً وردّاً عليها، لأنها قد غفلت عن كثير من الأمور، كانت هي السبب المباشر لمثل هذا الإجراء.

هذا وأخيراً طرحنا نظريتنا عن عقل المرأة وعقل الرجل، وأسميناها نظرية: (العقل الواحد والتغير الوظيفي) وهي عبارة عن قراءة جديدة، لا يمكن أن تحل تلك المشاكل المعقدة بين المرأة والرجل، إلّا من خلال إعتمادها والأخذ بها.

وبذلك نرجوا أن نكون قد وفقنا بهذه النظرية، بأن نعقد صلحاً بين الرجل والمرأة ينبع من صلب الواقع البيولوجي والوظيفي لكل منهما.

علي الزيدي

بغداد

خلق المرأة في الديانة اليهودية

تحت هذا العنوان نريد أن ننظر لأهم الخطوط العريضة للمرأة اليهودية وفي سياقات مختلفة لشريعتهم، وبحسب الأزمنة والأمكنة التي تأخرت فيها صورة ووضعية المرأة اليهودية.

فالتوراة بإعتبارها كتاب اليهود المقدس، تعكس مواقف ثقافية راسخة حول مكانة المرأة.[1] وعندما نتناول المرأة في الفكر الديني اليهودي، لابد لنا من أن ننطلق من التوراة، لأنها مصدر أحكامهم، وهي كتاب الله الذي أنزل على نبيه موسى. إنها بصورتها وصيغتها الحالية، وكما هو بين أيدينا –وحي السماء لليهود– وعلينا أن نسبق العرض التاريخي ونشير الى أنها وكما أكدت الدراسات التاريخية، ليست إلّا كتاباً

---

(١) ينظر صورة المرأة اليهودية بين الشريعة والواقع: جمال صوالحين، نشر دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ط١، ٢٠١٦: ص٧.

تاريخياً وضعه الحاخامات اليهود بعد أن أخفوا التوراة الحقيقية.[1]

وانّ من الأمور الثابتة لدى الباحث في مجال تاريخ الديانة اليهودية أن أحبار الدين اليهودي أثناء تدوينهم لمبادئه الروحية في دفتي التوراة تقصدوا عدم التقيد بالترتيب الزمني للأحداث التاريخية التي مرت بها المنطقة العربية قديماً، وذلك من أجل تشويش القارئ لصفحات التوراة. ومن أهم السبل والطرق التي انتهجها كتبة التوراة في تدوينهم هو تركيزهم على جسد المرأة للتلذذ بمفاتنه ولكونه سلاحاً في إغواء الرجال وكسب ودّهم أو للتخلص منهم.[2]

والحقيقة فقد تعامل اليهود مع المرأة بإتجاهين

---

(١) المرأة عبر التاريخ البشري: د. عبد المنعم جبري، نشر دار صفحات، دمشق، ط٣، ٢٠١٤م: ص٧٢.

(٢) المرأة في أسفار التوراة : د. علي عبد الله الجباوي، نشر دار التكوين، دمشق، ط١، ٢٠٠٩م: ص١٣.

متضادين، لا تكاد تجد له منفذ تبريري يقرر أحدهما في التعامل دون الآخر، إلّا أن يكون هناك تزاحم في أمراض النفس وإنحياز عن المفاهيم الإنسانية التي ينظر من خلالها الى المرأة ككائن بشري له حقوق وعليه واجبات، ففي اتجاه كان يتعامل مع المرأة على أنها شرّ وبسببها أُخرج آدم من الجنة، وبإتجاه آخر استخدامها استخدام ذرائعي، وفق مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، وذلك للوصول الى أهدافهم وغاياتهم المخطط لها مسبقاً: وبذلك يكون كتبة التوراة أول من ابتدع المبدأ الغائي الذي يجب على معتنقي اليهودية منذ ذلك الوقت التقيد به في حياتهم اليومية، هذا المبدأ الذي ينسب في وقتنا الحالي الى (ميكا فيللي) كمشرع له من خلال كتابه (الأمير) الذي يقول فيه متحدثاً عن إنطباعه عن البشر المتمسكين بالمادة على حساب أهوائهم وعواطفهم وتقاليدهم الإجتماعية ما يلي:

(وقد يقال عن الناس بصورة عامة، إنهم ناكرون للجميل، متقلبون، مراؤون، ميالون الى تجنب الأخطار،

شديدو الطمع، وهم الى جانبك طالما أنك تفيدهم، فيبذلون لك دماءهم وحياتهم وأطفالهم وكل ما يملكون... إذ أنّ الصداقة التي تقوم على أساس الثراء، لا على اساس نبل الروح وعظمتها، هي صداقة زائفة تشترى بالمال ولا تكون أمينة موثوقة، وهي عرضة لأن تجدها في خدمتك في أول مناسبة، ولا يتردد الناس في الإساءة الى من يخافونه، إذ أن الحب يرتبط بسلسلة من الإلتزام، التي قد تتحطم بالنظر الى أنانية عندما يخدم تحطيمها مصالحهم، بينما يرتكز الخوف على الخشية من العقاب وهي خشية قلما تعنى بالفشل)، فمن خلال قول ميكيا فيللي هذا يظهر أنه متأثر بما جاء في تعاليم التوراة... فالإنسان بنظره هو أناني ينظر الى مصلحته المادية أولاً الى حد يعدها أساساً في علاقته مع بقية الناس.(١)

(١) المصدر نفسه: ص١٤.

قصة خلق المرأة:

والآن لنرى كيفية الرؤية اليهودية للمرأة أي في كيفية خلقها وما قيمة وجودها وما هو دورها الإجتماعي في سياق النص التوراتي الذي ينقله العهد القديم لنا:

(وقال الله: لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا، وليتسلط على سمك البحر وطير السماء والبهائم وجميع وحوش الأرض وكل ما يدب على الأرض. فخلق الإنسان على صورته، على صورة الله خلق البشر، ذكراً وأنثى خلقهم، وباركهم الله، فقال لهم: (أنمو وأكثروا واملأوا الأرض، واخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وطير السماء وجميع الحيوانات الذي يدبّ على الأرض) سفر التكوين، الاصحاح الأول: ٢٦ – ٢٨.

(وأخذ الربّ الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليفلحها ويعتني بها. وأمر الربّ الإله آدم قائلاً: ((كل ما تشاء من جميع أشجار الجنة، ولكن إياك أن تأكل من شجرة معرفة

الخير والشرّ لأنك حين تأكل منها حتمـًا تموت)) ثم قال الربّ الإله: ((ليس مستحسنـًا أن يبقى آدم وحيدا. سأصنع له معينا نظيره)) وكان الربّ الإله قد جَبَل من التراب كل وحوش البريّة وطيور الفضاء وأحضرها الى آدم ليرى بأي أسماء يدعوها، فصار كلّ اسم أطلقه آدم على كلّ مخلوق حيّ اسمـًا له.

وهكذا اطلق آدم اسماءً على كل الطيور والحيوانات والبهائم. غير انه لم يجد لنفسه معينـًا نظيره، فأوقع الربّ الإله آدم في نوم عميق، ثم تناول ضلعـًا من أضلاعه وسدّ مكانها باللحم، وعمل من هذه الضلع امرأة أحضرها الى آدم. فقال آدم: ((هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي. فهي تدعى امرأة لأنها من امرئ أُخذت. لهذا، فإن الرجل يترك أباه وأمّه ويلتصق بامرأته، ويصيران جسداً واحداً. وكان آدم وامرأته عريانين، ولم يعترهما الخجل) سفر التكوين: الإصحاح الثاني: ١٥-٢٥.

والآن لو أتينا الى هذا النص التوراتي وتدبرناه، فإننا سنجد أموراً تستدعي الإلتفات والإنتباه إليها، بإعتبارها تعطي تأسيساً أولياً في تشخيص دور المرأة، وما هي درجة أهميتها الوجودية بصفتها شريكة للرجل في هذه الدنيا.

يفهم من هذا النص التوراتي بأن الله تعالى قد خلق آدم في بادئ الأمر وما خلق حواء إلا بالتبع، وذلك لتخليص آدم من وحدته، ولو كان لأمر آخر لتم ذكره في هذا السياق.

وما كان هذا الأمر ليتم لو أنهم وجدوا وسيلة أخرى أو علقة إرتباط تشد المرأة للرجل، ولذلك هم اختلقوا قصة الضلع المأخوذ من آدم ليخلق منه حواء. وبالتالي ليحتّموا على المرأة التبعية والخضوع للمخلوق الرجولي الأول. ولذلك تعتبر رواية أو فكرة خلق المرأة الأولى من ذلك الضلع الآدمي ما هي إلّا توظيف إجتماعي مقصود، ومن ثم صبّه في قالب الإضطرار للقبول بالواقع الخلقي ولابدّية ذلك الوجود الانثوي الذي أراده الله تعالى أن يكون كنوع من التسلية للرجل، ودفع وحشة الغربة التي تنتاب الفرد عندما

يعرض أمامه طريق طويل ولا يعلم ما ستخبئه له الأقدار.

إذن يحكم من خلال هذا التصور للمرأة على أن المرأة ما هي إلّا مخلوق بالعارض وما وجودها إلّا وجوداً ثانوياً إحتاج إليه آدم في لحظة من لحظات وجوده لمعالجة أسلوب معيشته الفردي، الذي يحتم عليه الوحشة مما أدّى بالتالي ليتجاوز هذا الأمر، أن خلق الله له المرأة أولاً، ومن ثم نوعية الإختيار وحتمية التبعية في هذا الإختيار ثانياً.

ولعل مسألة خلق امرأة من أحد أضلاع آدم تلقت إسم حواء بالعبرية Hawah وهي كلمة مرتبطة اشتقاقاً بعبارة تعني (الحياة) قد جاءت نتيجة التأثر بفكرة-الكائنات العظمى الخنثى- التي الواحد منها هو في الوقت ذاته ذكر وأنثى، وعلى هذا الأساس يغدو الزواج المقدس عندها لا جدوى منه من أجل الخلق، لأن الكائن من الألوهية الأوليّة، يشكّل في ذاته زواجاً مقدساً.

ففيما يتعلق بفكرة وجود الإنسان الأول لتكون هي

الأساس تبدو نفسها بدءاً بالسومريين الى مصر القديمة واليونان وحتى الشعوب البدائية وهي بأن الإنسان تشكل من مادة أولية (أرض، خشب، عظم) وأنه أعطي الحياة بنفس الخالق، وفي كثير من الحالات يكون هناك اعتقاد بأن شكل الإنسان هو ذات شكل خالقه. وكما مذكور في أسطورة سومرية إن الإنسان بشكله وبحياته يشاطر بنوع ما شرط الخالق. ولا ينتمي الى المادة سوى جسده، وإن خلق المرأة من ضلع أستل من آدم يمكن تفسيره كدليل على خنثوية الرجل الأول. وإن المفاهيم المماثلة تأكد في تقاليد أخرى، بما في ذلك تلك التقاليد المنقولة من قبل بعض (الميدراشيم Midra shim)(*)، وان أسطورة الخنثى تبرز معتقداً منتشراً جداً، فكمال البشرية المتماهية في الجد الأسطوري تستوجب

(*) الميدرا شيم: إسم عبري من الفعل (درش) أي (درس)، وجمع ميدراش، ميدراشيم. وهو شروحات للأسفار المقدسة.

وحدة وهي ذات الوقت جماعية.[1]

وأحد أسباب غياب اسطورة الزواج المقدس(*)، وكما يذكرها (ميرسيا إلياد) هو الحالة الكلية والجمع بين جنس الذكر والأنثى فيقدم نظرية يقول فيها: إن غياب الزواج المقدس في ديانات الأزمنة القديمة، هو لأن الكائنات العظمى كانت خنثى، وإن الواحد منها هو في الوقت ذاته، ذكر وأنثى، سماء وأرض. على هذا الأساس يغدو الزواج المقدس، عندها لا جدوى منه من أجل الخلق، لأن الكائن

---

(١) تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية: ميرسيا إلياد، ترجمة عبد الهادي عباس، نشر دار دمشق، دمشق، ط١، ١٩٨٧م: ج١، ص٢٠٦.

(*) (هي اسطورة زواج كوني مقدس بين السماء والأرض، وهي اسطورة واسعة الإنتشار للغاية، تتحدث عن الخلق الكوني، نصادفها على وجه الخصوص في أوقيانوسيا وكذلك في آسيا وفي أفريقيا وفي الأمريكيتين، وتشبه الى حد ما، اسطورة يحدثنا عنها هزيود في كتابه عن (ولادة الآلهة).

من الألوهة الأولية، يشكل في ذاته زواجاً مقدساً.

وليس لنا أن نرفض هذه النظرية بصورة مسبقة نحن على علم، بأن بعضاً من الكائنات العظمى عند شعوب من الأزمنة القديمة، كان يجمع بين خصائص الذكر والأنثى. لكن ظاهرة خنوثة الآلهة هي غاية في التعقيد. إنها تعني أكثر من تعايش، أو على الأغلب، أكثر من تحالف في الوجود، بين جنسين يلتقيان في كائن إلهي واحد. إن ظاهرة الخنوثة هي صيغة وجودية تغوص في سحيق الزمان، وذات إنتشار شامل. إنها تعبّر عن الكلية وعن تطابق بين الأضداد. بالإمكان القول إن الخنوثة هي أكثر من وضع دال على التمام والإمتلاء، وعلى الكفاية الجنسية، إنها ترمز أيضاً الى الكمال، والى حالة أولية غير مشروطة. لهذا السبب لا تقف هذه الظاهرة عند حدود الكائنات العظمى، ذلك أن العمالقة الكونيين، وكذا الأجداد الأسطوريين للبشرية هم بدورهم خنثويون.

آدم على سبيل المثال، يعتبر خنثى. يقال أنه (كان من الجهة اليمنى رجلاً، ومن الجهة اليسرى امرأة، ثم فلقه الى

نصفين) إن الجد الأسطوري ليرمز الى بداية نمط جديد من الوجود، وكل بداية تتم وتنطلق من إمتلاء الكائن ومن تمامه، نضيف أيضاً أن الآلهة العظمى للبنات، وبصورة عامة للخصوبة كانت تجمع في الوقت ذاته جنس الذكر والأنثى وكذلك نعثر على آثار ظاهرة الخنوثة عند آلهة من مثل (أتيس Attis)[1] و (أدونيس)[2]

---

(١) أتيس: هو إله الخصب في آسيا الصغرى، وقد عبده الاغريق أيضاً، وتتراوح عبادته بين الحزن الشديد والفرح المفرط، لهذا تمت بصلة الى عبادة أدونيس.

(٢) أدونيس: إله فينيقي، تعتبر مدينة جبيل مهد عبادته. وتقع جبيل على مصب نهر أدونيس، كان أدونيس، موضع إحترام في العالم اليوناني والروماني. ويعد من الرموز النباتية، لأنه ينتقل في الشتاء الى العالم السفلي حيث يمكث مع (برسفونة) ثم يبعث في الربيع ليكون الى جانب (أفروديت). إن أدونيس يمثل الموت والبعث المستمرين في الطبيعة. تقام الأفراح والأعياد عند بعثه، ويقام الحداد وتسود الأحزان عند موته.

و(ديونيزوس)[1]، وعلى حد سواء، عند آلهات من مثل (سيبيل Cybele)[2]، هذا الأمر نفهمه جيداً. ذلك أن الحياة تنطلق من فيض وامتلاء، ومن الكلية. وينبغي أن نضيف مباشرة أن الحياة هي تجلّ للقداسة، بالنسبة لأتباع الثقافات التراثية القديمة، وأنّ الخلق على جميع الأصعدة الكونيّة، يفترض تدخل قدرة مقدسة.

وبالتالي، فإن آلهة الحياة والخصوبة، تمثّل ينابيع قداسة وقدرة تؤكد الخنوثة دورهما. إن الخنوثة لتتجلى، بأوضح صورها عند الآلهة المذكرة والآلهة المؤنثة، ونفهم من ذلك

---

(١) ديونيزوس: عند اليونان هو إبن الإله زوس والحسناء الآدمية (سميلي)، يماثله عند الرومان باخوس هو (إله الكرمة والخمرة) يسود في اعياده المرح والمجون. ويتم فيها تضحية التيوس، ويكون فيها للكاهنات المعروفة بإسم الباخاتات أو المينادات دور هام.

(٢) سيبيل: آلهة الشرق الأدنى العظيمة. إرتبطت عبادتها بعبادة أتيس، وتحوي شعائرها على طقوس سرية. كان لها انتشار في العالم اليوناني والروماني في القرن الثالث ق.م.

أنها تغدو صيغة عامة تدل على الإستقلالية، وعلى القوّة والكلية. وإن القول عن إله إنه خنثى إنّما يوازي قولنا أنه الكائن المطلق، والواقع النهائي. بهذا الإعتبار ندرك لماذا لا يمكن لهذه الظاهرة عند كائن أعظم، أن تكون معبرة عن علامة خاصة ومميزة، لأن الأمر يتعلق من جهة أولى، بنموذج أول له إنتشار عالمي، ومن جهة ثانية، لأن الخنوثة تصير في نهاية الأمر، صفة من صفات الآلهة، وليس بمقدورها أن تكشف شيئاً عن البنية الداخلية للإله. إن إلهاً مذكراً بكل معنى الكلمة، يمكن أن يكون خنثى تماماً مثلما تكون الآلهة الأم. وبالتالي إذا قلنا إن الكائنات العظمى عند البدائيين هي -أو كانت- خنثى، فهذا الكلام لا يستبعد على الإطلاق، ذكورتها أو أنوثتها.[1]

والذي يدل ويؤكد على هذا الشيء هو أن مسألة خلق

---

(١) الأساطير والأحلام والأسرار: ميرسيا إلياد، ترجمة حسيب كاسوحة، نشر وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، ط١، ٢٠٠٤م: ص٢٦٧ وما بعدها.

المرأة من أحد أضلاع آدم لم تطرح بالنسبة للشرائع السماوية الكبرى إلّا عند اليهود في توراتهم، بعد أن عاشوا تجربة إعادة كتابة التوراة بعد ما يقارب الألف سنة من بعد موسى عليه السلام، ولذلك تأثروا بالبعد الطقوسي الذي كانت تطرحه الأساطير، وهي تمجد تلك الآلهة المتعددة، وفي رسمها لصور الكائنات العظمى وهي تتحرك ضمن إطارها وبعدها اللاهوتي، فيتحرك الخلق مع أي تحرك لها، سواء كان تحركاً إيجابياً أو سلبياً.

وفي هذا الصدد يقول صموئيل كريمر في كتابه (من ألواح سومر): وتلك لعل أهم نتيجة توصلنا إليها من تحليلنا المقارن، ذلك التفسير الذي تقدمه لنا القصيدة السومرية لتلك الفكرة التوراتية التي تعد من أشد الأمور المحيّرة في قصة الفردوس الواردة في التوراة. ونعني بذلك العبارة المشهورة التي تصف خلق حوّاء (أم جميع البشر) من ضِلَع آدم فلماذا خلقت من الضلع؟ وما الذي دفع القصّاص العبراني أن يختار الضِلَع دون سائر أعضاء الجسم الأخرى

لتخلق منه امرأة، التي يعني اسمها (حوّاء) بحسب تفسير التوراة له (تلك التي تحيي أي تسبب الحياة). إن سبب ذلك يكون واضحاً إذا افترضنا أن أساساً أدبياً سومرياً كالذي تقدمه لنا قصيدة (دلمون) هو الذي استندت إليه قصة الفردوس في التوراة. ففي هذه القصيدة السومرية كان أحد أعضاء الآلهة (أنكي) الذي أصابه المرض هو (الضِلَع) والكلمة السومرية للضلع هي (تي) ((Ti))، ودعيت الآلهة التي خلقت من أجل أن تشفي (ضلع) أنكي بإسم (نن – تي) أي (سيدة الضِلَع). ولكن الكلمة السومرية (تي) تعني أيضاً (أحيا) أو (جعله يحيا). وعلى هذا فيعني إسم الآلهة (نن – تي) السيدة التي تحيي، أو (سيدة الضِلَع).

وهكذا صارت (سيدة الضلع) في الأدب السومري تعني أو تطابق بطريق التورية والتلاعب بالألفاظ أيضاً (السيدة التي تحيي). فكانت هذه التورية التي تُعدّ أقدم تورية أدبية من نوعها قد نقلت وخلّدت في قصة الفردوس التوراتية، على الرغم من أنّ هذه التورية أو الجناس يفقد صلاحيته في

استعمال التوراة، لأن الكلمة العبرانية للضِلَع والكلمة التي تعني (من يحيي) لا تتشابهان، أي غير مشتركتين في اللفظ.(١)

ثم ينقل لنا عدّة اقتباسات مهمة لكي يوضح روح تلك القصيدة، نذكر منها هذا الإقتباس:

أجلست (ننخرساج) ((أنكي)) في حضنها،

ما يؤلمك يا أخي؟

إن الـ... هو الذي يؤلمني،

لقد عملت على ولادة الإله ((أبو)) من أجلك،

-يا أخي ما علتك التي تؤلمك؟

-إنّ فكي هو الذي يؤلمني،

---

(١) من ألواح سومر: صموئيل كريمر، ترجمة طه باقر، نشر دار الورّاق، بيروت، ط١، ٢٠١٠م: ص٢٥٧.

-لقد أولدت من أجلك الإله ((نن – تلّا))

-يا أخي ما يوجعك؟،

-إن سنّي هي التي توجعني،

-لقد أولدت من أجلك الإله ((نن – سوتو))،

-يا أخي ما يؤلمك؟

-إنّه فمي هو الذي يؤلمني،

-لقد أولدت من أجلك الإلهة ((نن – كاسي))،

-يا أخي ما يؤلمك؟

-إنّ... هو الذي يؤلمني،

-لقد أولدت الإلهة ((نازي)) من أجلك،

-يا أخي ما يؤلمك؟

-إنّ ذراعي هي التي تؤلمني،

-لقد أولدت من أجلك الإلهة ((آزيمو))،

-يا أخي ما يؤلمك؟

-إن ضلعي هي التي تؤلمني،

-لقد أولدت من أجلك الإلهة ((نن تي)) (أي سيدة الضلع) أو (السيدة التي تحيي)،

-يا أخي ما يؤلمك؟

-إنه الـ... هو الذي يؤلمني،

-لقد أولدت من أجلك الإله ((أين – شاج)).[1]

ولذلك ظنّ اليهود بانهم سيتمكنون من الإحاطة بمسألة الخلق الأولى لإنتاج بعداً بشرياً جديداً يتمكنوا من خلاله من جعل المرأة تتنزل عن كثير من حقوقها نتيجة رضوخها التام للرجل بسبب ذلك الإقتطاع الذي حصل لآدم من أجل

(١) المصدر نفسه: ص٢٦١ و ص٢٦٢.

خلق ذلك الرفيق الأنثوي الذي سيكون لصيقاً به وتابعاً له. وليكون بالتالي مبرراً مقبولاً لرسم خطوط عامة للمرأة لا يمكن لها أن تتعداها.

خلق المرأة في الإسلام

وأمّا ما جاء في الإسلام حول مسألة خلق المرأة من ضلع آدم، فالحقيقة انّ القرآن الكريم لم يذكر آية واحدة يبين فيها بأن المرأة قد خلقت من ضلع آدم أو من فضلة طين آدم عليه السلام، بل على العكس كانت آياته بخصوص خلق الرجل والمرأة، تبين مسألة التساوي في مرتبة الخلق ولم يذكر بأن لكل فرد منهما نوعية وماهية تختلف عن الآخر، بل قال تعالى:

- (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً...) سورة النساء:١.

- (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا...) سورة الروم: ٢١

- (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا) سورة الأعراف: ١٨٩.

-(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ) سورة السجدة: ٧

فقد جاء في تفسير الميزان بخصوص مسألة الخلق من نفس واحدة:

وظاهر السياق المراد بالنفس الواحدة آدم عليه السلام، ومن زوجها زوجته، وهما أبوا هذا النسل الموجود الذي نحن منه وإليهما ننتهي جميعاً على ما هو ظاهر القرآن الكريم كما في قوله تعالى: (خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) سورة الزمر: ٦، وقوله تعالى: (يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ) سورة الأعراف: ٢٧، وقوله تعالى حكاية عن ابليس: (لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا) سورة الاسراء: ٦٢، وظاهر الجملة أعني قوله: (وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) أنها بيان لكون زوجها من نوعها بالتماثل وأن هؤلاء المبثوثين مرجعهم جميعاً الى فردين متماثلين متشابهين فلفظة من

نشوئية والآية في مساق قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ سورة الروم: ٢١، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ سورة النحل: ٢٧، وقوله تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ سورة الشورى: ١١، ونظيرها قوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ سورة الذاريات: ٤٩، فما في بعض التفاسير: أن المراد بالآية كون هذه النفس مشتقة منها وخلقها من بعضها وفاقاً لما في بعض الأخبار: أن الله خلق زوجة آدم من ضِلَع من أضلاعه مما لا دليل عليه.»[1]

ويقول صاحب تفسير الأمثل: ثم أنّ قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ قد فهم منها بعض المفسرين أن حواء قد خلقت من جسم آدم وأستشهدوا لذلك بروايات وأحاديث غير معتبرة تقول: إنّ حواء خلقت من أضلاع آدم. لكن مع

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٤، ص١٣٦.

ملاحظة سائر الآيات القرآنية يرتفع كلّ إبهام حول تفسير هذه الآية، ويتضح أن المراد منها هو أنّ الله سبحانه خلق زوجة آدم من جنسه (أي من جنس البشر) ففي الآية (٢١) من سورة الروم نقرأ (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا) كما نقرأ: في الآية (٧٢) من سورة النحل (وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا)، ومن الواضح أنّ معنى قوله تعالى: (خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا) هو أنه خلقهم من جنسكم لا أنه خلقهن من أعضاء جسمكم.[1]

وجاء في تفسير مواهب الرحمن عند تفسير قوله تعالى: (الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ) أن الآية المباركة تدل على أن الإنسان خلق من نفس واحدة، وهي المادة الأولى لجميع أفراد الناس، وهذه قضية ثابتة اتفقت عليها جميع الأديان السماوية وأثبتت بالأدلّة القطعية فيكون للإنسان أصل واحد

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: الفقيه الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، نشر دار احياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م: ج٣، ص٥٦.

وهو الحقيقة الإنسانية يتحد فيها جميع الأفراد وكل السلالات والأقوام والمجتمعات بلا تفاوت بينها فهم كأعضاء نفس واحدة متفقون في الفطرة، ومشتركون في القيم والسير التكاملي، وبذلك ينفي نظرية التطور التي نادى بها بعض الفلاسفة الطبيعيون، فالإنسان نسيج وحده، وهو أصل منفرد قد خلقه الله تعالى ابتداءً ومباشرة بنفسه الأقدس وبين عّز وجلّ كيفية خلقه عدّة مواضع من القرآن الكريم قال تعالى: (وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ* ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ) سورة السجدة: ٧-٨، وقال تعالى: (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ)[1] سورة ص: ٧١. ثم يقول: ان المراد بالنفس هي تلك الحقيقة التي يمتاز بها الإنسان عن غيره، وما به يكون الإنسان إنساناً وهو الذي تعلق به الخلق كما أن المراد بالوحدة، الوحدة الفردية

---

(١) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: آية الله العظمى السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري، مطبعة الديواني، بغداد، ط١، ١٩٨٩م: ج٧، ص٢٢٩.

الشخصية وهي آدم عليه السلام أبو البشر، لا الوحدة النوعية كما ذكرها بعض المفسرين لكونها خلاف ظواهر الآيات الكريمة والسنّة المقدسة الشارحة لها، وحينئذ لابد أن يراد بالخلق في قوله تعالى: (وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) الخلق التقديري لا الفعلي من كل جهة، لفرض كون الخلق قبل خلق الروح، فيصير المعنى انكم تنتهون الى نفس واحدة كأنتهاء الصور الكثيرة الى المادة الأولية والهيولي الأولي.[1]

ثم يذكر ثلاث وجوه في تفسير قوله (وخلق منها زوجها) فينفي منهم الأول والثاني ويثبت الثالث، وهذه الوجوه هي:

الأول: أن يكون خلق الزوج بعد تمامية خلق آدم (عليه السلام) وتعلق الروح به بأن يكون قد انفصل جزء من الحي فصار إنسانـًا آخر.

الثاني: أن يكون الخلق بمعنى التقدير بأن يكون المعنى:

---

(١) المصدر نفسه: ج٧، ص٢٣٠

خلق من نوعها وعلى طبعها زوجها ولو بعد حين، فلا يكون انفصالاً.

الثالث: انها خلقت من الطينة الزائدة التي خلق منها آدم (عليه السلام) قبل تعلق الروح بهما فيكون آدم عليه السلام وحواء موجودين مختلفين ولكنهما متحدان في أصل الطينة.

والأولان لا وجه لهما، فيتعين الأخير، ويشهد لذلك أمور: منها: تكرار كلمة الخلق في الآية المباركة (وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) وهو يدل على تفاوت الخلقتين.

ومنها: التراخي في قوله تعالى في سورة الزمر: (خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) سورة الزمر: ٦.

ومنها: الأحاديث الكثيرة المعتبرة التي تنص على أنّ حواء عليها السلام خلقت من فاضل طينة آدم عليه السلام، وأما ما نقل من أن حواء خلقت من الضلع الأيسر من آدم عليه السلام فهو مما لا دليل له يصح الإعتماد عليه، اللهم إلّا أن يراد من ذلك أن الطينة الفاضلة من خلق آدم عليه السلام

لو جعلت في بدن آدم عليه السلام لكان موضعها الضلع الأيسر.[١]

هذا ويؤيد الفخر الرازي في تفسيره الكبير ما ذهب إليه أبو مسلم الأصفهاني بأن المراد من قوله: (وخلق منها زوجها) أي من جنسها وهو كقوله تعالى: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا) سورة النحل:٧٢، وكقوله: (إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ) سورة آل عمران: ١٦٤، وقوله: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ) سورة التوبة: ١٢٨.

ثم يعترض على القاضي عندما ذهب الى القول بخلق حواء من ضلع آدم الأيسر لكي يصح عنده قوله تعالى: (خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ) إذ لو كانت حواء مخلوقة ابتداءً لكان الناس مخلوقين من نفسين، لا من نفس واحدة، فيجيبه الرازي: بأن كلمة (من) لإبتداء الغاية، فلما كان ابتداء التخليق والإيجاد وقع بآدم عليه السلام صح أن يقال:

---

(١) المصدر نفسه: ج٧، ص٢٣١.

خلقكم من نفس واحدة، وأيضاً فلما ثبت أنه تعالى قادر على خلق آدم من تراب كان قادراً أيضاً على خلق حواء من التراب، وإذا كان
الأمر كذلك، فأي فائدة في خلقها من ضلع من أضلاع آدم.[1]

(١) ينظر التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن ابن علي التميمي البكري الرازي الشافعي (٥٤٤- ٦٠٤هـ)، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه، عماد زكي البارودي، نشر المكتبة التوفيقية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م: ج٩، ص١٤٧.

مع فراس السواح ومتوازياته

وفي هذا الصدد لم يوفق الباحث فراس السواح عندما حاول أن يجعل من قصة خلق آدم والمرأة القرآنية بأن تكون متوازية مع قصة الخلق التوراتية لآدم وحواء. حيث ينقل كيف خلق الله المرأة من جسد آدم بحسب ما جاء في التوراة: (فأوقع الربّ الإله سباتـًا على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحمـًا، وبنى الربّ الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها الى آدم) التكوين ٢: ٢-٢٢، (ودعا آدم اسم امرأته: حواء. لأنها أم كلّ حي) التكوين ٣: ٢٠.

ثم ينقل النصّ القرآني الذي جعله موازيـًا للنص التوراتي: (خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا...) سورة الزمر: ٦، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً...) سورة النساء: ١.

ثم يقول: وكما نلاحظ هنا فإن القرآن الكريم لا يتعرض لعنصر الضلع الذي أخذ من آدم، ويكتفي بالقول بأن المرأة قد خلقت من الرجل، كما إنه لا يشير الى إسم المرأة الأولى.(١)

فهو هنا من جهة يعترف بعدم ذكر القرآن الكريم لمسألة خلق المرأة من ضلع آدم، ولكنه يصرّ على أنّ المرأة، قد خلقت من الرجل، إصراراً منه على إيقاع التشابه والتوازي بين النصّ التوراتي والقرآني وبالتالي ليكون ما كان اسطورياً وقد مسته يد التحريف في التوراة هو عينه قد انتقل لكثير من الآيات القرآنية. وما ذلك إلّا أنه وقع في شبهة فهم معنى النص القرآني القائل: (خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا...) سورة الزمر: ٦. (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا...) سورة النساء: ١، معتبراً (ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) و (خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) ذلك

---

(١) القصص القرآني ومتوازياته التوراتية: فراس السواح، نشر دار التكوين، دمشق، ط٢، ٢٠١٦م: ص١٩٠.

البعض المادي الذي أقتطع من جسد آدم وتحديداً من أحد اضلاعه ليوجد تلك المرأة التي ستلازمه في هذا الوجود الدنيوي.

والحقيقة هو ما وصل الى هذا الإستنتاج إلّا من خلال عدّة عوامل قد تبنّاها في كتابه والتي منها:

أولاً:

إنّه وإن كان يخاطب العقل العربي إلّا أنّه ظل متشبثاً في بحثه باستخدام أدوات ومناهج البحث الغربي، بالرغم من إدّعائه إنّه حريص على الإضافة الى مساحة البحث على المستوى العالمي.[1] ومعروف ما للمنهج البحثي الغربي من اعتماد كلي على البعد الحسي، الذي يعجز في كثير من الأحيان عن تقديم تفسيرات لوقائع خرجت عن هذا البعد، فأصبح عاجزاً أمامها.

---

(١) ينظر: القصص القرآني ومتوازياته التوراتية، مصدر سابق: ص٥.

ثانيـاً:

عنده الأديان تنشأ في بيئة ثقافية معينة، هي التي تقدم له الخلفية الإعتقادية والميثولوجية، والتي يشيد بنيته الجديدة انطلاقاً من نقدها وتجاوزها، ولكن مع الإبقاء على بعض آثار تلك الخلفية القديمة. فالعلاقة عنده بين القديم والجديد علاقة جدلية، يتبادل الإثنان فيها التأثر والتأثير وصولاً لحالة من الإستقرار يلتقي عندها الإثنان في تركيب لا يشبه أياً منهما – وهو هنا يقصد بالتركيب الدين–.

فبالرغم من قوله: (وهكذا نكون أمام نظريتين في تفسير تشابك الكتب المقدسة: الأولى تنظر الى الدين بإعتباره ظاهرة ثقافية ينطبق على بقية ظواهر الثقافة الإنسانية من نشوء وتطور وتأثر وتأثير. والثانية تنظر الى الدين بإعتباره نتاج وحي إلهي مباشر، ألقي في قلب النبي= (القرآن الكريم)، أو بإعتباره نتاج إلهام من الروح القدس خطته يد

بشرية= (التوراة والإنجيل).[١]

إلّا إننا نجد من خلال طرحه في هذا الكتاب قد إنحاز بشكل واضح الى النظرية الأولى، على الرغم من قوله بأنّه لا ينطلق في دراسته من موقف مسبق من مسألة التشابه بين القصص القرآني والقصص التوراتي، وإنّما من موقف باحث يعتمد منهج علم الأديان المقارن.[٢]

ثالثاً:

هو تعامل مع الأديان الثلاثة على مسافة واحدة من تأثرها بالأسطورة وتأثير العادات والأبعاد الإجتماعية عليها، وبالتالي مدخليتها في كتابة النص، متأثراً بما حدث للتوراة من تدوين على يد محررين مختلفين، وبفترات زمنية متباعدة. وقد بدأ عزرا الكاهن والكاتب اليهودي الذي بينه وبين موسى أكثر من ثمانية قرون، الكتابة أيام السبي البابلي

---

(١) ينظر: المصدر السابق: ص٩ وص١٠.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ص١٠.

في عهد نبو خذ نصر الذي هزم المملكة الجنوبية لليهود – مملكة يهوذا– سنة ٥٨٦ ق.م، ونقل من بقي فيها من اليهود أسرى الى بابل.[1]

ثم ان نسخة عزرا وما دوّنه لا يعلم على التحقيق مصيرها، وإنّما بعد ذلك بما يقارب قرنين من الزمن كتبت النسخة السبعينية، في زمن الحاكم اليوناني بطليموس الثاني (٢٨٢ – ٢٤٧ ق.م).

ثم أن اليهود فقدوا المقدرة على فهم اللغة العبرية المدوّنة القديمة بعد اختلاطهم بالأمم، وذلك لأن اللغة العبرية في أصلها بدون نقط ولا حركات، وهذا يسبب أخطاء كثيرة في القراءة، فاهتدوا الى وسيلة لإزالة هذا اللبس بإدخال النقط والحركات والفواصل، واستمر هذا العمل من القرن السابع الميلادي الى القرن العاشر الميلادي، فأخرجوا نسخة

---

(١) الدولة العادلة يوتوبيا أم واقع: علي الزيدي، نشر دار سحر القلم، بيروت، ط١، ١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م: ص٤٩٤.

من التوراة باللغة العبرية عن هذا النمط تسمى (النسخة الماسورية)، انتهوا منها في القرن العاشر الميلادي، وعن هذه النسخة -أي العبرية- المعدلة نسخت جميع النسخ العبرية والمترجمة عنها.[1]

وبالتالي عندما نأتي ونعمل دراسة مقارنة بين ما موجود بالتوراة التي تأثرت بالصور الميثولوجية التي كانت سائدة في تلك المرحلة مع ما جاء في القرآن الكريم، هنا تكون المقارنة على شكل القياس مع الفارق، بإعتبار أن التوراة، قد كتبت بمفهوم بشري وأبدت ما تريده هي عن الله، وبين نص إلهي لا دخل لليد البشرية في كتابته. وهذا الأمر في الحقيقة هو ما حاول الغرب من جرّنا إليه، وبحجة البحث الموضوعي عن الدراسات المقارنة للأديان، على أن توضع كلّها على مائدة النقد والفحص، وبالتالي إبداء الملاحظات، والمقارنة بين ما هو اسطوري المنشأ، كما في بعض كتابات التوراة وبين

---

(١) ينظر المصدر نفسه: ص١٤٣.

ما هو إلهي، والفهم السطحي لكثير من آيات القرآن التي تحتاج الى تخصص في فهم مطالبها، إذ هناك فرق واضح بين أن تفهم وتحلل كلام بشري، وبين أن تدقق وتحلل وتحاول الوصول الى فهم الكلام الإلهي، فلا يمكن المقارنة والمقايسة بين الإثنين، فلكل مجاله ودائرة فهمه. ولذلك لا يمكن لنا أن نورد اشكالاً على ما هو بشري، ومن ثم نعمم نفس الإشكال عل ما هو إلهي سماوي. وبالتالي يقع هنا الخلط في إرجاع كلا الأمرين الى بشرية الأديان وتأثرها بالمحيط والبيئة الإنسانية بشكل عام. وهذا في الواقع خطأ، علينا الإلتفات إليه ومعالجة الأمور بعد التصحيح، لا ان نبقى مستمرين في التعامل النمطي معه.

كيف تأثرت بعض الروايات الإسلامية بالإسرائيليات؟

وأمّا ما ذكر عند المسلمين من الروايات حول مسألة خلق المرأة من ضلع آدم، فقد كانت متباينة، وقد تأثر قسم منها بالإسرائيليات وبالمنهج التوراتي في طرح هذه المسألة.

فقد سكن اليهود والنصارى شبه جزيرة العرب، قبل مئات السنين من ظهور الإسلام، وفي هذا الصدد يقول المؤرخ اليعقوبي: ثم دخل قوم من العرب في دين اليهود، وفارقوا هذا الدين، ودخل آخرون في النصرانية، وتزندق(*) منهم قوم، فقالوا بالثنوية(**)، فأمّا من تهود منهم، فاليمن

(*) تزندق: اعتنق الزندقة واتصف بها. والزندقة هي الكفر باطناً مع التظاهر بالإيمان.

(**) الثنوية: مذهب (ماني) وأتباعه، يقولون بوجود مبدأين أساسين متضادين، لا ينفكان في عراك أبدي؛ مبدأ النور والخير ومبدأ الظلمة والشرّ.

بأسرها، كان تبّع حمل حبرين من أحبار اليهود الى اليمن، فأبطل الأوثان، وتهّود من باليمن، وتهّود قوم من الأوس والخزرج، بعد خروجهم من اليمن، لمجاورتهم يهود خيبر، وقريضة، والنضير، وتهّود قوم من بني الحارث بن كعب، وقوم من غسان، وقوم من جذام.

وأمّا من تنصّر من أحياء العرب، فقوم من قريش من بني أسد بن عبد العُزّى، منهم؛ عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزّى، وورقة بن نوفل بن أسد، ومن بني تميم بنو أمرئ القيس بن زيد مناة، ومن ربيعة بنو تغلب، ومن اليمن طيّ، ومذحج، وبهراء، وسَليح، وتنوخ، وغسّان، ولخم.(١)

وهذا الوجود اليهودي في شبه الجزيرة كان له بالطبع أثر ثقافي على العرب فيما قبل الإسلام، كما كان للعرب في

(١) تاريخ اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي، تحقيق عبد الأمير مهنا، نشر شركة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م: ج١، ص٣١٠ وما بعدها.

الجاهلية رحلاتهم شرقاً وغرباً، وسجل القرآن الكريم إحداها، وهي رحلة قريش شتاءً الى اليمن، وصيفاً الى الشام، وفي كل من اليمن والشام تمركز أهل الكتاب وبخاصة اليهود منهم، ولا شك أن كانت هناك اتصالات ولقاءات مختلفة بين العرب وهؤلاء، مما يفتح أبواب التأثر والتلقي حتى وإن كان ذلك بصورة محدودة. فلما جاء الإسلام، كان من الطبيعي أن تكون هناك حوادث ومجادلات بين النبي صلى الله عليه وآله وبين أهل الكتاب من أجل عرض هذا الدين الجديد عليهم ودعوتهم إليه، وقد سجلت السور المدنية في القرآن الكريم جوانب عديدة من تلك المناظرات التي تمت بين الجانبين. وما كان يدور فيها من عرض الآراء، وتصديق أو تفنيد، وكان نتيجة ذلك أن أسلم من عامة أهل الكتاب وأحبارهم ورهبانهم، منهم من حسن إسلامه، ومنهم من دخل فيه نفاقاً بغية الهدم والتخريب.

ويتضح مما سبق وجود العوامل المهيئة للتأثير بعامة، وتسرب الإسرائيليات الى التراث الإسلامي بخاصة.

فالتعايش بين المسلمين وأهل الكتاب، وإسلام العامة والخاصة من اليهود والنصارى، وظاهرة النفاق ومحاولة الدس والتخريب، وإتفاق القرآن مع الكتب السابقة في العديد من القضايا لكونها جميعًا من مصدر واحد، وحكمة القرآن وأسلوبه البليغ في تفضيل بعض الأمور وإنجاز البعض الآخر، كلّ ذلك ساعد على إمكانية أن ينقل المسلمون عن بيئتهم آنذاك بعض الملامح الثقافية السائدة والتي تمثلت في جوانب من تراث أهل الكتاب.»[1]

ولقد تسربت الإسرائيليات في المرحلتين –الرواية والتدوين– ففي مرحلة الرواية، كانت نفوس الصحابة تتوجه الى معرف تفاصيل بعض القصص المجمل في القرآن، والذي لم يُسأل النبي فيه، فكانوا لا يتحرجون في سؤال أهل الكتاب من جيرانهم فيما يتعلق بهذه التفاصيل التي لا تتعلق بحكم أو تشريع، وإنّما هي تشبع حالة الفضول الإنساني الى

---

(١) الإسرائيليات في تفسير الطبري: د. آمال عبد الرحمن ربيع، نشر دار الثقافة العربية، القاهرة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م: ص٢٨.

المزيد من المعرفة. وفي عصر التابعين، حيث دخل كثير من أهل الكتاب في الإسلام، مع إتساع التواجد الإسلامي وتمدده، وحيث التساهل الذي ميز هذه المرحلة، زادت رواية الإسرائيليات، نتيجة محاولات بعض المفسرين آنذاك سد الثغرات فيما لا يعرفونه من تفاصيل، وكأنهم تحرجوا من الإجمال والإختصار في الوقت الذي تتسم فيه كتب اليهود والنصارى بالتفاصيل. وبعد التابعين جاء عصر لم يفرق فيه أصحابه بين الغث والسمين، ولم يقتصروا على رواية الإسرائيليات، بل راحوا يروون الخرافات والأساطير التي لا سند لها من كتاب أو صحائف.[1]

وفي هذا الصدد ذكر ابن خلدون، وهو يتكلم عن التفسير النقلي المستند الى الآثار المنقولة عن السلف: وهي معرفة الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ومقاصد الآي. وكل ذلك لا يعرف إلّا بالنقل عن الصحابة والتابعين. وقد جمع

(١) المصدر نفسه: ص٢٩.

المتقدمون في ذلك وأَعَوا، إلّا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغثّ والسمين والمقبول والمردود. والسببُ في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنّما غلبت عليهم البداوة والأمّية. فإذا تشوّقوا الى معرفة شيء مما تتشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكوّنات، وبدء الخليقة، وأسرار الوجود، فإنّما يسألون عن أهل الكتاب قبلهم ويستفيدون منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم، ولا يعرفون من ذلك إلّا ما تعرفه العامّة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حِمير الذين أخذوا بدين اليهودية. فلمّا أسلموا بقوا على ما كان عندهم، مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها، مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع الى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك. وهؤلاء مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم. ما امتلأت التفاسير من المنقولات عندهم، في أمثال هذه الأغراض، أخبار موقوفة عليهم، وليست مما يرجع الى الأحكام

فيتحرى في الصحة التي يجب بها العمل. وتساهل المفسرون في مثل ذلك وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات. وأصلها كما قلناه عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية، ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك، إلّا أنّهم بعد صيتهم وعظمت أقدامهم، لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملّة، فتلقيت بالقبول من يومئذ.(١)

هذا ويمكن إعطاء سبباً آخر يفسر لنا عملية النقل من الموروث الروائي التوراتي، وهو؛ أن اليهود والنصارى يمتلكون رصيداً كبيراً في عملية نقل النصوص الروائية وتحويلها الى نصوص مقدسة تمثل البعد العقدي عندهم، بحيث شكلت بالتالي ثقلاً كبيراً في تواجدها مع التوراة الواقعية أو الإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام، حتى اختلط بالتالي الصحيح مع المحّرف، أو إضافة ما حّرف لسد

(١) المقدّمة: العلّامة ابن خلدون، نشر دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م: ص٧٨٧.

فراغات ما حذف من كتابي التوراة والإنجيل.

هـذا الأمـر أعطـى قـوّة وخبـرة عالية فـي وضـع وصياغة الـروايات بشكل متقن وخصوصـاً ما يناسب تلك المرحلة التي قلّ فيها التمحيص والتدقيق من جانب مسلمي الجزيرة العربية، وبالخصوص مسلمي مجتمع المدينة والمجتمع المكي. وذلك لقلة خبرتهم في هذا الجانب وعدم ممارستهم لهذا البعد الروائي أولاً، وعدم تحركهم لسؤال الرسول صلى الله عليه وآله عن تلك الأمور التفصيلية ليبينها لهم ثانيـاً، بإعتبار حداثة الإسلام ولا توجد الخبرة اللازمة لإستظهار مثل تلك الأخبار من الرسول صلى الله عليه وآله. بل انشغلوا بأمور أخرى ضرورية، ولعلها كانت في الغالب الأسئلة والإستفسارات حول الأحكام ومعرفة مسائل الحلال والحرام، مضافـاً الى توجههم الى السؤال عن فقه الحروب والمرأة ومعرفة أحوال الجنّة والنار، والى غيرها من الأمور التي تم التركيز عليها في القرآن الكريم.

مـمّـا أدّى الـى عـدم إلـتـفـاتـهم الـى مـعـرفـة تـلك الأمـور

التفصيلية عن عملية الخلق أو سيرة من سبق الرسول محمد صلى الله عليه وآله من الأنبياء والصالحين بشكل دقيق ومفصل. مما اضطرهم بالتالي الى أن يتوجهوا الى مصدر آخر من مصادر الأخبار عندهم، وهم اليهود والنصارى بإعتبارهم أهل كتاب، ومن ثم الوثوق بهم وبإخباراتهم الروائية، وخصوصاً بعد أن عرفنا بأن بعضاً من علمائهم واحبارهم قد أعلن إسلامه ظاهراً، كأمثال عبد الله بن سلام ووهب بن منبه وغيرهم، فأصبح الطريق معبداً وسالكاً لإستلام ما يقولونه برحابة صدر ودون أي تدقيق أو حذر، معتبرينها أموراً ثانوية لا تؤثر على حالة المسلم في علاقته مع ربّه ومع الآخرين. هذا بالتالي سبّب الى أن ينفتح باباً واسعاً لدخول الكثير من أشباه تلك الروايات التي استندت في جذرها على البعد الروائي التوراتي.

والآن لنأتي ونتعرف الى ذكر نماذج من تلك الروايات الإسلامية التي ذكر فيها مسألة خلق المرأة من ضلع آدم الأيسر بشكل صريح وبلا تحرج، والتي ذكرت

مسألة خلق المرأة من فضلة طينة آدم دون أن تذكر الضلع. ومن جهة أخرى وردت روايات وخصوصاً عند الشيعة استهجنت هذه المسألة، فطرحت مفهوماً آخر مغايراً لذلك المفهوم الذي تأثر بالموروث الروائي التوراتي. وسنذكر الآن نماذج مختلفة من تلك الروايات الإسلامية المتعلقة بهذا الأمر:

- عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضِلَع، وإنّ اعوج شيء في الضِلَع اعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فأستوصوا بالنساء.[1]

- عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن المرأة خلقت من ضِلَع لَنْ تستقيم لك على طريقة فإن

---

(١) صحيح البخاري: أبي عبد الله بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، ترقيم وترتيب الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دار ألفا، مصر، ط١، ٢٠٠٨م/ ١٤٢٩هـ: باب خلق آدم عليه السلام، ح٣٣٣١، ص٤٠٢.

استمتعت بها استمتعت بها، وبها عوج وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرُها طلاقها.[(١)]

- عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا شهد أمراً فليتكلم بخير أو ليسكت واستوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضِلَعٍ، وإنّ أعوج شيء في الضلع اعلاهُ إن ذهبتَ تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل اعوجَ، استوصوا بالنساء خيراً.[(٢)]

- وجاء في كتاب الكافي: إن الله خلق آدم عليه السلام من الماء والطين فهمّة ابن آدم في الماء والطين وخلق حواء

---

(١) صحيح مسلم: أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦- ٢٦١هـ)، ترتيب الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دار ألفا، مصر، ط١، ٢٠٠٨م/١٤٢٩هـ: ص١٠٠٤.

(٢) المصدر نفسه: باب استحباب نكاح البكر، حديث ٦٠، ص٤٠١.

من آدم فهمّة النساء في الرجال فحصنوهنّ في البيوت.[١]

- وجاء في كتاب قصص الأنبياء للراوندي: (وإنّما سمّي آدم لأنّه أخذ من أديم الأرض. وقال: انّ الله تعالى خلق آدم من الطين وخلق حواء من آدم، فهمّة الرجال الأرض وهمّة النساء الرجال...).[٢]

ويقول صاحب كتاب من لا يحضره الفقيه: والخبر الذي روى أن حواء خلقت من ضِلَع آدم الأيسر صحيح ومعناه من الطينة التي فضلت من ضلعه الأيسر فلذلك صارت أضلاع

---

(١) الكافي: ثقة الإسلام ابي جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني الرازي (ت ٣٢٨/ ٣٢٩هـ)، نشر دار الكتب الإسلامية، قم، ط٣، ١٣٦٧ ش: ج٥، ص٣٣٧.

(٢) قصص الأنبياء: قطب الدين سعيد بن هبة الله الراوندي، اعداد وتنظيم السيد حسين الحسيني، نشر دار المحبين، قم، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م: ص٢٣.

الرجل أنقص من أضلاع النساء بضلع.»[1]

وفي تفسير العياشي وردت رواية عن عمرو بن أبي المقدام عن أبيه قال: سألت أبا جعفر عليه السلام من أي شيء خلق الله حواء؟ فقال: أي شيء يقول هذا الخلق؟ قلت: يقولون: إنّ الله خلقها من ضلع من أضلاع آدم، فقال: كذبوا، أكان يعجزه أن يخلقها من غير ضلعه؟ فقلت: جعلت فداك يا بن رسول الله: من أي شيء خلقها؟

فقال: أخبرني أبي عن آبائه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الله تبارك وتعالى قبض قبضة من طين فخلطها بيمينه، وكلتا يديه يمين، فخلق منها آدم، وفضلت فضلة من

(١) من لا يحضره الفقيه: أبي جعفر الصدوق محمد بن علي الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ)، نشر دار الكتب، قم، ط٦، ١٣٨٣هـ: ج٣، ص٢٤٠، باب بدء النكاح.

الطين فخلق منها حواء.[1]

وعن زرارة بن أعين أنه قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام عن خلق حواء، وقيل له: إنّ أناسًا عندنا يقولون: إنّ الله عزّ وجلّ خلق حواء من ضِلَع آدم الأيسر الأقصى. فقال: سبحان الله وتعالى عن ذلك علواً كبيرا، أيقول من يقول هذا إنّ الله تبارك وتعالى لم يكن له من القدرة ما يخلق لآدم زوجة من غير ضلعه!! ويجعل للمتكلم من أهل التشنيع سبيلاً الى الكلام أن يقول: إنّ آدم كان ينكح بعضه بعضًا، إذا كانت من ضِلَعه، ما لهؤلاء حَكَمَ الله بيننا وبينهم؟! ثم قال عليه السلام: إنّ الله تبارك وتعالى لما خلق آدم عليه السلام من طين وأمر الملائكة فسجدوا له ألقى عليه السبات ثم

(١) تفسير العياشي: المحدث الجليل أبي النصر محمد بن مسعود ابن عيّاش السَلَمي السمرقندي المعروف بالعياشي، تصحيح وتعليق السيد هاشم الرسولي المحلاتي، نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٢، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م: ج١، ص٢٤٢.

ابتدع له حواء.[1]

ومن خلال عرض هذه الروايات يمكن أن نقسم مسألة خلق حواء الى ثلاثة أقسام وهي:

الأول: إنّ حواء قد خلقت من ضلع آدم الأيسر.

الثاني: إنّ الله تعالى قد ابتدع حواء لآدم، بعد أن خلق آدم عليه السلام من الطين.

الثالث: إنّ حواء قد خلقت من الطينة التي فضلت من آدم بعد تمامية خلقه.

والآن لو جئنا الى روايات القسم الأول للنظر فيها، ولنرى مدى قبولها أو رفضها، ضمن الضوابط التي ينبع منها العدل الإلهي والمساواة في الخلقة، فهنا يمكن أن يعترض عليها ضمن عدّة أمور منها:

---

(١) من لا يحضره الفقيه، مصدر سابق: ج٣، ص٢٣٩ باب بدء النكاح.

أولاً: من ناحية المفسرين، ففي هذا السياق يقول صاحب الميزان في تفسير آية (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا..) وهذا المعنى- أي خلق حواء من ضلع آدم- وإن لم يستلزم في نفسه محالاً، إلّا أن الآيات القرآنية خالية عن الدلالة عليها.[1]

ويقول صاحب تفسير الفرقان: فـ(خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ) تنهي خلق الناس كلهم الى هذه النفس الواحدة، ولكن (وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) تضيف إليها زوجها المخلوق منها في انتسال الناس منها، والواو -بطبيعة الحال- هنا حالية تعني (خَلَقَكُم...)

والحال إنه خلق منها زوجها ليخلقكم كلكم من ذكر وأنثى، كما في آية أخرى: (إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ) سورة الحجرات: ١٣، فالذكر هو تلك النفس الواحدة وزوجها هي التي خلقت منها، فخلقنا من نفس واحدة -وخلق منها

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٤، ص١٤٧.

زوجها- يختلف عن خلق زوجها منها، فإنها دون توالد متعود، ونحن خلقنا منها بتوالد بين الذكر وأنثى، فلأن زوجها خلق منها يصح أننا خلقنا منها، أي منها وزوجها المخلوق منها، اللهم إلّا في عيسى المخلوق من أم دون أب ولكن أمّه مخلوقة كسائر الناس من ذكر وأنثى و (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) سورة آل عمران: ٥٩.

وقد تكون الواو بيانية تبين كيف (خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ) ولابدّ في خلق النسل الإنساني من نفسين، فالجواب (وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) التي لابدّ منها في ذلك الخلق المتسل، ثم (وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً)، ولكنها -إذاً- بيان الحال أو حال البيان.[1]

وجاء في تفسير مواهب الرحمن عند قوله تعالى: (وَخَلَقَ

---

(١) الفرقان في تفسير القرآن: د. محمد الصادقي، نشر دار الأميرة، بيروت، ط١، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م: ج٦، ص١١ و١٢.

مِنْهَا زَوْجَهَا)، الزوج اسم لكل واحد من القرينين سواء كانا من الحيوانات المتزاوجة، أو ما يقترن بآخر مماثلاً أو مضاداً. والمراد بها هنا. أي: وخلق من تلك النفس الواحدة زوجها، وهي منشأها فتفيد من نوع تلك النفس الواحدة وجنسها، وان الزوجين متماثلان في أصل الإنسانية وقيمها ومتحدان في العبودية لله تعالى وجميع الأحكام، إلّا ما يختص طبع كل جنس ببعض الحقوق والواجبات.

ونظير هذه الآية الشريفة قوله تعالى: (خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) سورة الزمر: ٦، وعلى هذا لا فرق بين أن تكون (من) نشوية أو تبعيضية، فإن كل واحدة منهما ترجع الى الأخرى.[1]

هذا وقد ذكرنا في الأوراق السابقة آراء لمفسرين كبار استبعدوا خلق حواء من ضلع آدم، كالفخر الرازي والشيخ ناصر مكارم الشيرازي والسيد الطباطبائي والسيد عبد

---

(١) مواهب الرحمن في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٧، ص٢٣٠.

الأعلى السبزواري قدست أسرارهم فراجع ولا حاجة للتكرار.

هذا وقد تكلف كثيراً الآلوسي في تفسيره روح المعاني من أجل أن يثبت بأن حواء خلقت من أحد أضلاع آدم، ومن ضمن ما أشكل عليه هو قول القائل: (بأنه أية فائدة في خلقها -أي حواء- من ضلع والله تعالى قادر على أن يخلقها من تراب؟) فقال: إن فائدة ذلك سوى الحكمة التي خفيت عن إظهار أنه سبحانه قادر على أن يخلق حيّاً من حيّ، لا على سبيل التوالد -كما أنه قادر على أن يخلق حيّاً من جماد كذلك -ولو كانت القدرة على الخلق من التراب مانعة عن الخلق من غيره لعدم الفائدة لخلق الجميع من التراب بلا واسطة لأنه سبحانه -كما أنه قادر على خلق آدم من تراب- هو قادر على خلق سائر أفراد الإنسانية منه أيضاً، فما هو جوابكم عن خلق الناس بعضهم من بعض مع القدرة على خلقهم كخلق آدم عليه السلام، فهو جوابنا عن خلق حواء

من آدم مع القدرة على خلقها من تراب...).[1]

والحقيقة أن الأمر لا يتعلق بالقدرة الإلهية، فموضوع أن الله تعالى قادر على كلّ شيء هذا أمر مفروغ منه بين المسلمين، ولا يحتاج الى إثباته لهذا التكلف والعناء، فمعلوم (أَنَّ اللهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) سورة البقرة: ١٠٦ و (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) سورة الأنبياء: ٢٣، وإنّما عندما يطرح مثل هذا الأمر الرافض لمسألة خلق المرأة من الضِلَع يطرح لا على نحو عدم قدرة الله على فعله، وإنما من أجل إثبات شيئاً آخر يعتمد على مفردات أساسية تبين عدالة الله ولطفه، وإنّ الله قد أوجد في هذا الكون قوانين سوف يسير عليها هذا الوجود، وستبقى كل الموجودات

---

(١) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: العلّامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي (ت ١٢٧٠هـ)، تعليق محمد أحمد الأمد وعمر عبد السلام، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م: ج٤، ص٥٣٣.

توجد وتنمو وتتحرك ضمن أسباب وقوانين لا يمكن تخطيها.

ثم إنّ الذي حرّك قسماً من العلماء سواء أهل التفسير أو أهل الحديث الى رفض مثل هذه التصورات والأحاديث، هو من أجل إثبات مسألة تساوي الرجل والمرأة في الخلقة، وأنّ الله تعالى قد وعد الإثنين بالثواب أو العقاب، وأملى على الطرفين الإتيان بتكاليف العبادة والطاعة، ولذلك قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) سورة الحجرات: ١٣، ثم إنّ الإصرار على مسألة خلق المرأة من ضلع أعوج فهذا دليل على أن الذين يذهبون الى هذا القول يصّرون على عدم أحقية المرأة بأن تدّعي التكامل أو أن تسعى الى التكامل، بإعتبارها بالأصل هي معوّجة، ولذلك لن تقدر على الإستقامة، فيجب أن تكون دائماً تحت رحمة الرجل.

ليس هذا فقط فهم يذهبون برواياتهم على أنها لم تُخلق

من أضلاع آدم التي في يمينه، وإنما يعلقون الأمر على أنها خلقت من ضلعه الأيسر، بإعتبار شرفية جهة اليمين ولو من الناحية المعنوية، وكما يتوضح ذلك من خلال الآيات القرآنية والتي منها:

- (يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا) سورة الإسراء: ٧١.

- (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ) سورة الحاقة: ١٩

- (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ) سورة الحاقة: ٢٥

- (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ...) سورة الواقعة: ٢٧، ٢٨.

- (وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ

وَحَمِيمٍ...) سورة الواقعة: ٤١، ٤٢

ثم إننا لا يمكن أن نغفل بعض المرجحات التي تظهر وتعلو على ما ذهب إليه أصحاب القول بخلق المرأة من ضلع آدم الأيسر الأعوج ومنها:

١. وجود الروايات التي تعارض مسألة خلق المرأة من ضلع آدم الأيسر، والتي ذكرنا بعضاً منها في الأوراق السابقة.

٢. عدم وجود النص القرآني الذي يصرّح بمسألة خلق المرأة من أحد أضلاع آدم. وهذا دليل جداً معتبر على عدم صلاحية تلك الروايات.

٣. ان الروايات التي تقول بأن حواء خلقت من ضلع آدم، معنى ذلك أنّها تؤكد على أنها خلقت من البدن –بدن آدم– بينما القرآن يقول أنّها خلقت من النفس، ولا توجد آية واحدة تقول أنها قد خلقت من البدن. وكما هو واضح من الآيات التالية وغيرها:

- (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) سورة النساء: ١

- (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) سورة الاعراف: ١٨٩

- (خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) سورة الزمر: ٦

- (جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا...) سورة الشورى: ١١

وعلى هذا يكون للمرأة شرفية، لأنها خلقت من النفس، وليس من المادة.

أما إذا أتينا للروايات التي في القسم الثاني، والتي جاء فيها بأن الله تعالى قد ابتدع حواء لآدم بعد أن خلق آدم عليه السلام من الطين، كما ينقلها الصدوق في كتاب من لا يحضره الفقيه، فمعنى ذلك: إنّ الله تعالى بعد أن خلق آدم من الطين إبتدع له خلقًا، فجعل هذا الخلق امرأة لآدم ليأنس

بها، وليكونا الأصل الذي يوجد بسببه كل رجل وامرأة فيما بعد.

ولو جئنا وأردنا أن نحدد معنى كلمة (ابتدع) فنجدها في المعاجم اللغوية:

البَدْعُ: إحداث شيء لم يكن له من قبل خلق ولا ذكر ولا معرفة. والله بديع السماوات والأرض ابتدعها، ولم يكونا قبل ذلك شيئاً يتوهمهما متوهم، وبدع الخلق.

وابتدعت: جئت بأمر مختلف لم يعرف ذلك.[1]

وقال صاحب كتاب التحقيق في كلمات القرآن الكريم في مادة بدع:

إنّ الأصل الواحد في هذه المادة: هو إيجاد شيء

---

(١) كتاب العين: ابي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠ – ١٧٥هـ) نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م: ص٦٠.

وإنشاؤه على خصوصية لم يسبقه فيها غيره. والفرق بين الخلق والإبداء والإبداع: أنّ الخلق هو إيجاد شيء بالكيفية المخصوصة من دون توجّه الى خصوصية أخرى، والإبداء هو الإنشاء والإيجاد ابتداءً وفي أول مرة. والإبداع هو الإيجاد بكيفية مخصوصة لم يسبقها شيء آخر.[1]

وهنا فإن المقصود بالإبداع بهذه الرواية وغيرها، بأن الله تعالى قد إبتدع حواء من نفس الطينة التي خلق منها آدم عليه السلام، وليس من شيء آخر مباين له، فيكون المعنى المفهوم بأن الله تعالى قد أوجد خلقاً من طينة آدم، لم يكن قد خلق مثله من قبل، فهذه المرأة التي ابتدعت لها خصوصية غير مسبوقة بمثلها، وهنا ستكون مخلوقة مبتدعة، وإن كانت من نفس الطينة التي خلق منها آدم عليه السلام، لكنها قد حملت بعداً أنثوياً يختلف عن آدم الذكر، وهو غير مسبوق

---

(١) التحقيق في كلمات القرآن الكريم: المحقق المفسر العلّامة المصطفوي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٩م: ج١، ص٢٥٠.

بمثل تلك الهيئة. وعلى هذا يصدق قول الفراهيدي على إبتداع المرأة، حينما قال عن البدع: هو إحداث شيء لم يكن له قبل خلق ولا ذكر ولا معرفة. ففعلاً إنّ حواء لم تكن قد خلقت قبل آدم، وكذلك لا يوجد لها ذكر بإعتبار عدم وجودها الخلقي الدنيوي، وكذلك لم يكن قد سبق لأحدٍ معرفة بأنها ستوجد على هذه الأرض، بإعتبار أن الله تعالى قد أخبر الملائكة، على أنه سيوجد آدمـًا يستخلفه في الأرض (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) ولم يخبر الملائكة عن وجود انثوي سيكون معه ليشاركه في تلك المهمة، وهذه التفاته سنقف عندها في البحوث القادمة إن شاء الله تعالى.

وعلى هذا الأساس، فلا يوجد تعارض في البين، فإن الطينة هي واحدة والنفس واحدة، ولكن كان أمر الإبتداع مرهونـًا بآدم وحواء، إذ كلّ منهما قد ابتدع إبتداعـًا، فكان آدم الذكر، وكانت حواء الأنثى، ليشكل هذا الإبداع خطـًا حياتيـًا تستمر من خلاله البشرية ما شاء الله أن تستمر.

والآن بعد أن وضحت الفكرة والمعنى من هذه الرواية، فسيكون قبولها وارداً، ولا يتعارض مع ما نريد إثباته.

أمّا إذا جئنا الى الروايات من القسم الثالث التي تخبرنا على أن حواء قد خلقت من الطينة التي فضلت من آدم بعد خلقه، فالحقيقة إن التعبير بأنها خلقت من فضلة الطين ليس للإستهانة بهذه الطينة، وبالتالي يرجع الأمر للتقليل من قيمة المرأة وأهميتها، فالله جل جلاله حكيم وقادر ولطيف، فلا توجد عنده زيادة وبقية بعد تمامية عمله، لتكون فضلة، ثم يرتأي ان يصنع منها امرأة. فهذا محال ولا يمكن ان يتعلق هذا الأمر بالذات المقدسة، وإنما يمكن لنا أن نفهم من هذا التعبير ببقية تلك الفضلة عدة أمور منها:

أولاً: الترتيب الزمني والسبق الوجودي لآدم عليه السلام، حيث وجدت الطينة فبدأ أولاً بخلق آدم من جزء من تلك الطينة، وثم خلقت حواء من الجزء الآخر المتبقي.

ثانيـاً: إنّ ذكر مسألة خلق المرأة من نفس طينة آدم، لكي

يغلق الباب وتسكت الأصوات التي تبحث عن وجود طينة أخرى للنساء، تختلف عن طينة الرجال، والتي يتم على ضوئها القياس والمفاضلة، ومن ثم الوصول الى نتائج تنتزع إنتزاعاً من هذا الفرق. ولتثبيت هذه الحقيقة نزلت عدّة آيات بهذا الشأن منها قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) سورة الأعراف: ١٨٩.

خلق المرأة عند النصارى

أما مسألة كيفية خلق المرأة عند النصارى، فلم يتعرض لها في الأناجيل الأربعة المعروفة ولكن طرحت في أعمال الرسل، وتحديداً في رسائل بولس، فقد جاء في رسالته الى مؤمني كورنثوس: (فإن الرجل لم يؤخذ من المرأة، بل المرأة أخذت من الرجل، والرجل لم يوجد لأجل المرأة، بل المرأة وجدت لأجل الرجل. لذا يجب على المرأة أن تضع على رأسها علامة الخضوع) الإصحاح ١١: ٨-١٠ وكذلك (غير أنه في الربّ ليست المرأة دون الرجل، ولا الرجل من دون المرأة. فكما المرأة أخذت من الرجل، فإن الرجل يكتمل بالمرأة).[١]

والحقيقة إنّ الإيمان اليهودي الكامل بمعصية المرأة كان السبب الأساسي في احتقارها، حتى وصفها آباء الكنيسة بأنها (إبريق مليء بالقاذورات وفمها مليء بالدم، ومع ذلك

---

(١) الرسالة الأولى الى مؤمني كورنثوس، الإصحاح ١١: ١١-١٢.

يجري وراءها الجميع)، وإنها مصدر الغواية والإغراء.[1]

بينما تطرح التوراة مسألة عقوبة حواء بعد أن قدمت التفاحة لآدم وأغرته بأكلها، والإشارة الى حادثة الولادة بإعتبارها عقاباً للمرأة، فهي آخر إشارة قد تفادى الإنجيل ذكرها كلية، فيما اعتبرها القرآن نعمة الخلق ذاته ومدح المرأة من أجلها.[2]

عموماً تلك كانت الأرض التي عملت عليها المسيحية عند ظهورها: التراث الروماني الذي هو استمرار للتراث اليوناني، والذي يحمل نفس الكراهية للمرأة من ناحية، والتراث اليهودي الذي يضفي على هذه النظرة صبغة دينية من ناحية أخرى. وهما نظرتان تعبران في الواقع عن منفعة

---

(١) المرأة في اليهودية والمسيحية والإسلام: زكي علي السيد أبو غضة، نشر دار الوفاء، مصر، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م: ص٢٤.

(٢) ينظر الحديث عن المرأة والديانات: الصادق النيهوم، نشر دار الإنشاء العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م: ص٨.

الرجل، ومصلحته وتطلعه للسيطرة على المرأة –ولاسيما زوجته- حتى يضمن سلالة نقية ليس فيها دماء غريبة ترث ما يملك من ثروة.

ومن العجيب حقًا أن يطغى هذا التراث الروماني – اليهودي على الفكر المسيحي ويسيطر حتى تختفي مواقف السيد المسيح تمامًا، وتعود النظرة الدونية للمرأة للظهور من جديد، إبتداء من أقوال القديس بولس، حتى يقوم فلاسفة المسيحية بتنظيرها والبرهنة على صحتها، مستخدمين العقل ومستعينين بآيات الكتاب المقدس، ولاسيّما العهد القديم، دون أن يذكر أحد مواقف السيد المسيح، وكلماته، ونظرته الجديدة المنصفة للمرأة.[1]

وهنا تقول داعية حقوق المرأة في أمريكا في أواخر القرن التاسع عشر: إنّ النظرة الدونية للمرأة لدى اليهود ثم

---

(١) الفيلسوف المسيحي والمرأة: د. إمام عبد الفتاح إمام، نشر مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م: ص٣٨.

المسيحيين هي بسبب التعاليم التي أتت بها الكتب المقدسة كالتوراة والإنجيل، وأنّ الإنجيل وضع المرأة في مرتبة دون الرجل لقرون طويلة وكان عليها الحمل والولادة والإذعان لزوجها.[١]

أما المصلح مارتن لوثر كنج فيقول: إنّ آدم خلق سيداً للكائنات، ولكن حواء أفسدت هذه الميزة، ولذا عليها البقاء في البيت للحمل والقيام بأعباء البيت.

أما القس جيري فالويل فيقول: إننا ضد قانون الحقوق المتساوية للمرأة مع الرجل، لأن المسيح يقود الرجل، والرجل يقود المرأة، والمطالبات بهذه المساواة مريضات نفسياً.

وقد تبنى القديس بولس جهاراً مبدأ الهيمنة الذكورية:

---

(١) حقوق المرأة في الديانات والمعتقدات: اعمال مؤتمر الأديان السنوي لسنة ٢٠١١م بإشراف د. شمران العجلي، نشر دار الحكمة بغداد، ط١، ٢٠١٣:ص١٣٨.

(وأريد أن تعلموا أن رأس كل رجل هو المسيح ورأس المرأة هو الرجل) كما جاء في رسالته الى أهل كورنش (منطقة في فرنسا)، كما تتسلط فكرة حواء المغوية على آباء الكنيسة مثل ترتو ليانس TERTULIEN الذي عبر عن رأيه بصراحة قاسية تجاه اللواتي يحملن -في نظره- خاتم الخطيئة الأدبية: ما زال حكم الله على هذا الجنس حياً حتى يومنا هذا، فليبق حيا. ينبغي أن تتبقى هذه الجريمة عاراً أبدياً. يا امرأة! أنتِ الباب الذي دخل منه ابليس الى الدنيا. أنتِ أول من اكتشف الشجرة، وخالفت الشريعة الإلهية. أنتِ التي أغويت ذلك الذي لم يؤت ابليس الشجاعة لمهاجمته وجهاً لوجه. لقد حطمتِ الرجل بلا جهد ولا تعب.[1]

وعلى الرغم من أنّه لم يرد ذكر تفاصيل واضحة للتفاوت الطبيعي بين المرأة والرجل في كتب ورسائل العهد الجديد، غير أنّ الإعتقاد بالتفاوت الطبيعي، والإختلاف في

---

(١) المصدر نفسه: ص١٣٩.

الأحوال والأوضاع، يعد موضوعاً بديهياً بين القادة والزعماء المسيحيين، في القرون الأولى والقرون الوسطى، وما بعد عصر النهضة، وعلى سبيل المثال، شاع بين علماء المسيحية في القرون الأولى أنّ المرأة تمتلك استعداداً خاصاً للتحدث وقابلية كبيرة للتكلم، فذكروا أنّه نزلت من السماء الى الأرض عشرة مقادير من الكلام، فكان نصيب المرأة منها تسعة مقادير، والرجل مقداراً واحداً... كما أن أوغسطين Augustine الفيلسوف المسيحي البارز في القرن الخامس، ومن أكبر زعماء الكنيسة في القرون الوسطى، اعتبر المرأة ضعيفة البنية، وأكثر عرضة للخداع من الرجل.[1]

ولقد أقرّ الكتّاب وعلماء اللاهوت المسيحيون طوال قرون من عمر المسيحية وفي عصورها المختلفة بالأهمية الكبيرة لرواية خلق حواء في العهد القديم. وعندما تلفَّق رواية

---

(١) ينظر: المرأة هويتها الجنسية وأدوارها الإجتماعية: محمد رضا زيبائي، ترجمة رعد حجاج، نشر مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٣: ص٤٣.

حواء وتركب مع رواية الهبوط، فإنهم يقدمون شواهد –لا يمكن بلا شك انكارها– على أن الشأن العقلي والأخلاقي للنساء أقل فطرياً من مثيله عند الرجال، وقد بررت المسيحية على طول التاريخ ما لديها من تقاليد معادية للنساء بالإستناد الى روايتي خلق حواء والهبوط الى حد كبير، خاصة إذا لاحظنا أن هاتين الروايتين لم يكن ينظر الى أيّ منهما على أنها اسطورية الى وقت قريب، وإنما كانتا تعدّان من الوقائع التاريخية التي لا مراء فيها ولا تقبل الشك. يقول ريك Reik ،وهو واحد من الباحثين المشهورين ومن المحققين الجادين أيضاً في أمور الكتاب المقدس: (إنّ قصة الكتاب المقدس حول ولادة حواء أكبر خدعة واحتيال في التاريخ).

وإن الميول والإتجاهات المعادية للمرأة في الثقافة الغربية لها جذور في معاداة اليونانيين العميقة للنساء، وقد إستمر هذا العداء بوضوح أيضاً في العهد القديم ثم في العهد الجديد. وساعد إستمراره في العهد الجديد على تقوية هذه الميول والإتجاهات المعادية للنساء. ولسنا في حاجة الى

القول إن للعهد الجديد أهمية أكبر من العهد القديم عند المسيحيين. ومن المؤكد أن أكثر النصوص التي تحتوي على عداء للنساء في العهد الجديد نراها في رسائل بولس. لقد كان القديس بولس يهتم أشد الإهتمام بالنظام والإنضباط على مستوى المجتمع وعلى مستوى إجتماعات المسيحيين في الصدر الأول للمسيحية أيضاً، وكان من المهم بالنسبة إليه ألّا يكون للنساء في الاجتماعات المسيحية مكانة مهيمنة أو موقع متميز.»[1]

عموماً لقد كانت الديانة المسيحية مشابهة في العديد من قيمها ونظراتها التي سادت حول المرأة في الديانة اليهودية، إذ تم ممارسة العنف ضدها بالرغم من أنّ المسيح رفض هذا التعامل القسري، وكمثال على هذا رفضه رجم الزانية، بل العفو عنها، لقناعته أن جميع الناس قد يخطئون، أمّا من جاء

(١) المرأة خلقها ودورها الإجتماعي: مجموعة مؤلفين، ترجمة أحمد حسين بكر، نشر مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠١٦م: ص٨١.

بعده فقد أعادها الى تعامل اليهود وقسوتهم.[١]

وهنا نلاحظ كيفية تأثر رجال الدين المسيحيين بالرؤية اليهودية عن المرأة، معتبرين التفاوت بين المرأة والرجل في الخصائص التكوينية، وفي الأوضاع والأدوار، وفي التعليم والأحكام من المسلمات، بل قد يذهبون الى أبعد من ذلك، فينقلون التفاوت الى المكانة الإنسانية والأخلاقية بين الجنسين.[٢]

وبذلك تناسى رجال الدين النصارى ما جاء به عيسى، ونظرته الجديدة المنصفة للمرأة، وكيفية تعامله معها. وهذا ما بينته الأناجيل، وهي تتناول ذكر ما قاله عيسى عنها وطريقة التصرف معها بمواقف مختلفة، تدل دلالة واضحة على اعطاء بعد قيمي وإنساني عال للمرأة، لا يمكن أن يشم

---

(١) حقوق المرأة في الديانات والمعتقدات، مصدر سابق: ص١٥٦.

(٢) ينظر: المرأة هويتها الجنسية وأدوارها الإجتماعية، مصدر سابق: ص٤١.

منه ذلك التفاوت العقلي أو وجود إشارة للدونية من ناحية التعامل معها.

فبينما كانت التوراة تهين المرأة وتحتقرها وتحاول استغلال جسدها وجمالها لأغراضهم الدنيئة، حتى أن الرجل منهم يقول في صلاته: (أحمدك يا رب أنك لم تخلقني امرأة).(*) ويقول صاحب سفر الجامعة: (فوجدت أن المرأة أمرُّ من الموت لأن قلبها مصيدة وشبكة ويداها قيود. الصالح أمام الله ينجو منها، أمّا الخاطئ فيعلق بها) الإصحاح السابع: ٢٦.

والشيء الملفت للنظر ان الأمور التي طرحت بها نظرة الدونية للمرأة وجدت في أعمال الرسل، وبرسائلهم التي بعثوا بها الى الأماكن المختلفة ولم يرد شيء يحط من المرأة

(*) وهي عبارة تروى في التراث الفلسفي اليوناني، ويقال إنها وردت على لسان سقراط الذي كان يحمد الله كثيراً لأنه خلقه (أثينيّاً وليس بربريّاً، حراً وليس عبداً، رجلاً وليس امرأة).

في أناجيل (متي و مرقس و لوقا و يوحنا).

ففي إنجيل متي نرى كيف يعظم عيسى عليه السلام إيمان تلك المرأة الكنعانية التي رآها في نواحي صور وصيدا، عندما قال لها: (ما أعظم إيمانك يا امرأة! فليكن لكِ ماتريدين) الإصحاح ١٥: ٢٨، فشفيت ابنتها من تلك الساعة. ثم بين التساوي بين الرجل والمرأة، وكيف انهما يعتبران كجسد واحد، وذلك عندما سأله بعض الفريسيين عن طلاق الرجل للمرأة (ودنا إليه بعض الفريسيين وسألوه ليحرجوه: أيحل للرجل أن يطلق امرأته لأي سبب كان؟ فأجابهم: أما قرأتم أن الخالق من البدء جعلهما ذكراً وانثى وقال: لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويتحد بامرأته، فيصير الإثنان جسداً واحداً؟ فلا يكونان اثنين، جسد واحد. وما جمعه الله لا يفرقه الإنسان) انجيل متي: الإصحاح ١٩: ٣-٦.

وكذلك لنرى تدخل عيسى عليه السلام، عندما دافع عن المرأة وإيمانها، ضد ملاحظة تلاميذه القاسية، التي لا تنم عن

وعي وفهم لتحركات عيسى، حيث يخبرنا إنجيل متي: (وبينما يسوع في بيت عينا عند سمعان الأبرص، دنت منه امرأة تحمل قارورة طيب غالي الثمن، فسكبته على رأسه وهو يتناول الطعام. فلما رأى التلاميذ ما عملت، استاؤوا، وقالوا: ما هذا الإسراف؟ كان يمكن أن يباع غالياً ويوزع ثمنه على الفقراء! فعرف يسوع وقال لهم: لماذا تزعجون هذه المرأة؟ فهي عملت لي عملاً صالحاً. فالفقراء عندكم في كلّ حين، وأمّا أنا فلا أكون في كل حين عندكم. وإذا كانت سكبت هذا الطيب على جسدي، فلتهيئه للدفن. الحق أقول لكم: أينما تعلن هذه البشارة في العالم كلّه، يحدث أيضاً بعملها هذا إحياءً لذكرها) الإصحاح ٢٦: ٦-١٣.

كما أن عيسى عليه السلام لم يظهر بعد صلبه، كما تقول الأناجيل، إلّا لامرأتين هما مريم المجدلية ومريم الأخرى، عندما جاءتا لزيارة قبره فجر يوم الأحد، وهاتان المرأتان طلب منهما عيسى عليه السلام إخبار حواريه بأنه قد قام من بين الأموات، وسيسبقكم الى الجليل وهناك يرونه، وحينما

رأوه شكّوا به ولم يصدّقوه. كما يخبرنا متي في إنجيله: (ولما مضى السبت وطلع فجر الأحد، جاءت مريم المجدلية ومريم الأخرى لزيارة القبر، وفجأة وقع زلزال عظيم، حين نزل ملاك الربّ من السماء ودحرج الحجر عن باب القبر وجلس عليه. وكان منظره كالبرق وثوبه أبيض كالثلج. فأرتعب الحرس لما رأوه وصاروا مثل الأموات.

فقال الملاك للمرأتين: لا تخافا أنا أعرف انكما تطلبان يسوع المصلوب، ما هو هنا، لأنّه قام. كما قال: تقدما وانظرا المكان الذي كان موضوعاً فيه. واذهبا في الحال الى تلاميذه وقولا لهم: قام من بين الأموات، وها هو يسبقكم الى الجليل، وهناك ترونه. ها أنا قلت لكما.

فتركت المرأتان القبر مسرعتين وهما في خوف وفرح عظيمين، وذهبتا تحملان الخبر الى التلاميذ، فلاقاهما يسوع وقال: السلام عليكما فتقدمتا وامسكتا بقدميه وسجدتا له. فقال لهما يسوع: لا تخافا! إذهبا وقولا لإخوتي أن يمضوا الى الجليل، فهناك يرونني) متي الإصحاح ٢٨: ١-١٠

(أما التلاميذ الأحد عشر، فذهبوا الى الجليل، الى الجبل، مثلما أمرهم يسوع، فلما رأوه سجدوا له، ولكن بعضهم شكّوا..) متي: الإصحاح ٢٨: ١٦-١٨.

وهنا لنا وقفة تظهر فيها دلالات كثيرة نذكر منها:

أولاً:

إهتمام كبير من قبل عيسى عليه السلام بالمرأة وإختيار بعض النساء لتكون من ضمن قائمة المخلصات اللواتي يقضن له العديد من الحاجات التي تفيد في عملية هداية الآخرين.

ثانياً:

استخدام الرأفة والرحمة، مقابل أخطاء المرأة وعدم استخدام القسوة معها بإعتبار أن الكل معرض للخطأ رجلاً أو امرأة، ولم يحمل الخطيئة على المرأة فقط، كما فعل مع تلك المرأة الزانية، وكيف إلتفت الى الحضور قائلاً: من كان

منكم بلا خطيئة فليرمها بأول حجر، ولكنهم خرجوا الواحد بعد الآخر، وبقي عيسى عليه السلام وحده، وقال لها اذهبي ولا تعودي للخطيئة مرة أخرى، فاتحاً لها باب التوبة والإنابة على مصراعيه.

ثالثاً:

إن الأناجيل قد بينت لنا أمراً مهماً، والظاهر أن الذين كتبوا الأناجيل لم يلتفتوا إليه إطلاقاً، وهذا الأمر في الواقع يعطي أهمية كبيرة جداً لدور المرأة في الإحاطة بالنبّوة، ومن ثم الحفاظ عليها ضمن الضوابط والطبائع الإجتماعية في تلك المرحلة التي وجد فيها عيسى عليه السلام. وكان يفترض على رجال الدين النصارى أن ينتبهوا لهذا الأمر، وأن يعطوا المكانة اللائقة للمرأة، وبحسب معطيات الأناجيل التي بيّنا قسماً منها، فضلاً عمّا سنذكره الآن، ولكنهم واقعاً، لم يعبئوا لهذا الشيء، وارتكزت في خلجات أنفسهم، ما طرحته وجاءت به التوراة، وما دار مدار المصاديق الإجتماعية التي كانت سائدة عندهم، بحيث فضلها رجال

الدين النصارى على ما دوّنته أناجيلهم.

عمومـًا فهذا الأمر الذي وددت أن أبيّنه، هو أننا لو دققنا النظر في الأناجيل، فإننا سنرى بأن هناك بدايات ونهايات لعيسى عليه السلام هذه البدايات وهذه النهايات كانت مرتبطة إرتباطـًا وثيقـًا بالمرأة دون الرجل:

البدايات المرتبطة بالمرأة مع السيد المسيح

فالبدايات: كان إرتباط سبب وجود عيسى عليه السلام متعلقـاً بوجود مريم عليها السلام، وهذا ما بينه القرآن الكريم أيضـاً، وهي التي ولدته دون أي تدخل للرجل في ذلك، بل كانت ولادة بسبب انثوي، وبتدخل إلهي مباشر، لإتمام هذا الأمر الذي خالف كلّ نواميس الطبيعة، بحيث شكل بالتالي حالة فريدة في هذا الوجود، كانت بطلتها امرأة. وهـذه نقطة بلا شك تحسب للمرأة في تشكيل خريطة للهداية لها طرقها ورمزيتها الخاصة بها، لتجعل لها بصمة في هذا الوجود، لا يمكن أن ينكرها الآخرون، وإن جدّوا واجتهدوا في إخفاء هذا الأمر.

ومن هذا الأمر يمكن لنا أن نظفر بعلّة جديدة لتكنية فاطمة الزهراء عليها السلام بـ(أم أبيها) من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله وهي: كما أن مريم العذراء قد أحاطت

عيسى عليه السلام بعناية خاصة، كانت مراحل النبوّة عندما تتكامل تحتاج الى إشراك الأنثى في هذا التكامل، فلابد من إيجاد تلك البصمة الأنثوية لتشارك الذكورة في إكمال تلك المرحلة الإنسانية الطويلة، وبالتالي لإتمامها على أكمل وجه.

وإلّا ففي الحقيقة لا يمكن حصر علّة وجود مريم لتكون هي السبب في ولادة عيسى من دون أب، على أنها فقط للإعجاز وإلفات نظر الناس إليها. وذلك بإعتبار وجود عدّة إعجازات قد تحققت على هذه الأرض كانت في إطارها العام هي خارجة عن نواميس الطبيعة، وقد تكون أعمق أثراً مما جاءت به مريم عليها السلام، بل كان من الممكن أن يأتي عيسى بالأسباب الطبيعية، ومن ثم ليؤدي دوره الرسالي على أكمل وجه، كما حدث مع يحيى عليه السلام أو غيره من الرسل عليهم السلام. ولذلك يمكن لنا أن نفهم من ولادة عيسى عليه السلام من خلال امرأة من دون تدخل الرجل هو لبيان أثر المرأة في مشاركة الرسل وتقديم خدمات لهم، لا

يؤديها إلّا المرأة. وقد حان الأوان لإبراز هذا الدور، وبما أن مريم عليها السلام قد أدت بعدها التربوي مع عيسى عليه السلام، بإعتبار أهمية وجود الأنثى مع الرسالة، فلذلك إحتاج رسول الله صلى الله عليه وآله لمن يؤدي دور الأنثى، لدعم وإتمام رسالته، لذلك كانت فاطمة عليها السلام هي من أدت هذا الدور. فكان وصفها بأم أبيها، هي لكونها قد أدت لمحمد صلى الله عليه وآله دوراً لا يكتمل إلّا من خلال الأمومة، لما تبثه من معاني ومداليل لا يمكن أن تستحصل بغير هذا اللقب والكنية ومن هذه الأشياء:

بما أن الأمّ لها الفضل في إيجاد الفرد -نقصد به الرسول- وخروجه الى الدنيا، فهو أيضاً يحتاج الى أن تستمر رسالته بعد وفاته، وهنا يحتاج الى إيجاد أخوّة إيمانية رسالية هي التي تتكفل بهذا الأمر، وبما أن فاطمة الزهراء عليها السلام كان عن طريقها ولادة الأئمة الأحد عشر، فهي والحال هذه شُبّهت بالأم لمحمد صلى الله عليه وآله لأنها ولدت أخوة له، لأنهم يقعون في نفس المساحة الرسالية، وهم

يؤدون دور الحفاظ عليها من الضياع أو الإنحراف فمثلوا أخوّة معنوية لرسول الله صلى الله عليه وآله، وإن كان هو جدّهم بالواقع. كما أن هناك كلمات صدرت من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله تشير الى أخوّة باقي الأنبياء له، فقد روي عنه صلى الله عليه وآله انه قال: (يرحم الله أخي يوسف لقد كان صابراً حليماً...)[1]

وكذلك قوله صلى الله عليه وآله: (رحم الله أخي موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر)[2]

فالرسول صلى الله عليه وآله كما أشار الى أخوّة يوسف وموسى، وهو يقصد بها الأخوّة الرسالية والعقائدية، فكذلك

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م: ج١١، ص٣٧١

(٢) النوافح العطرة: محمد جار الله الصعدي: ص١٥٤.

أراد بقوله لفاطمة بأنها أم أبيها؛ لكونها ولدت له أئمة سيكونون له أخوة في الرسالة والعقيدة والدين، تستمر بهم رسالته الخالدة.

ويمكن أن نلاحظ أمر الإهتمام بالمرأة، وبيان دورها مع الأنبياء والحفاظ عليهم ومن ثم مشاركتهم في الحفاظ على من تتم على يديه منابع الهداية في ثلاثة مواقف حدثت مع الأنبياء من أولي العزم وهي:

الأول: موقف أم موسى عليها السلام ودورها المشهود في الحفاظ على النبي موسى بعد أن أوصى لها الله تعالى أن تلقي موسى في اليم ليردّه إليها: (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) سورة القصص: ٧. وقد فعلت بالرغم من خطورة الموقف وقبولها بالمجازفة بولدها ووضعه في اليم، وما كانت أن تفعل ذلك لولا إيمانها المطلق بالله ومن ثم استحقاقها مرحلة الوحي -بغض النظر عن نوعيته وماهيته-.

الثاني: موقف مريم عند ولادة عيسى عليه السلام، وما شكلته بالتالي من إعطاء بعد روحي عالي تقوده المرأة وتكافح به من أجل ولادة نبي يمثل مصدراً للهداية في ذلك العمق الزمني، وكذلك يمثل سنداً إلهياً يعين به الإمام المهدي في ظهوره المبارك لتخليص العالم من الظلم والفساد.

الثالث: فاطمة الزهراء عليها السلام وإعتراف النبي صلى الله عليه وآله بإمومتها له، وأنها (أم أبيها) بإعتبار الحفاظ على خط ونهج الرسالة القويم، وذلك لأنها ولدت منها بداية سلسلة الأئمة الذين بهم تحفظ وتصان النبوّة، وبذلك يكونوا كالأخوة المشتركين في الهدف الإيماني المشترك، وكما بينّاه سالفاً.[1]

---

(١) للاستفادة والزيادة في بحث كنية فاطمة بأم أبيها، يراجع كتابنا (مفاهيم عصرية عن فاطمة الزهراء)، من ص٦٣ الى ص١٠٢ فهناك تجد البحث مفصلاً.

ومن هذه المواقف الثلاثة يمكن أن نصل الى مطلب يدعم ما ذهبنا إليه من عدم وجود المجتمع الأنثوي[1]، وسيطرة الأنثى فيه، بإعتبار أن أصدق حوادث التاريخ ما ينقلها لنا القرآن الكريم، وذلك متى ما غابت الحقيقة عنّا، وخصوصاً عندما لا تعيننا أدوات البحث الحسيّة للوصول الى الحقائق، فهنا علينا أن نلتجئ الى مصدر معرفي واقعي لا تشوبه الشكوك والظنون، ألا وهو الكتاب الإلهي المتمثل بالقرآن، ونعتمد على ما يخبرنا به إعتماداً كلياً. ولكن للأسف أخذنا نعتمد على ما يطرحه الغرب للوصول للحقائق، تاركين دلائل ومعارف القرآن وراء ظهورنا غير مبالين بها.

عموماً فقد أراد الله تعالى أن يعطي دوراً مميزاً للمرأة، ويثير الإنتباه حولها، بعد ما كانت محرومة من أبسط حقوقها، ولا تثير أي إهتمام، إلّا بالنزر اليسير، ففي الحالات

---

(١) للإستفادة والزيادة في هذا الموضوع، يراجع كتابنا: (المرأة والرجل عقل واحد أم عقلان) ص٨٩ وما بعدها.

التي كان يرى لها تحرك إجتماعي معين، وعلى نحو بسيط، كان نادراً ما يثير الإنتباه حوله. فأستخدم التدريج في هذا الأمر لعدم تقبل المجتمعات في تلك المرحلة من الزمن الأمور الدفعية والمباشرة لبيان أهمية المرأة ودورها في بناء المجتمع، بل في الحفاظ على أعلى قيمة إنسانية والمتمثلة بالنبوّة. فابتدأ بأم نبي الله اسماعيل زوجة إبراهيم عليهم السلام، وكيفية تحملها لأداء ذلك الدور المصيري في زرع التوحيد في ذلك المكان الموحش الذي وصفه الله تعالى: (بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ) سورة إبراهيم: ٣٧، بحيث لم تكلف بالبقاء هناك فقط، وإنّما لتحافظ وتربي وليدها الذي سيحمل ثقل الرسالة بعد أبيه إبراهيم عليه السلام، ولو تمعنا بهذا الموقف لرأيناه كم كان عظيماً ومصيرياً يعجز عن القيام به أكابر الرجال. ولكن تلك المرأة المؤمنة أدّته بقلب مطمئن بالإيمان، وعارف بثقل الأمانة الملقاة عليه لأدائها.

ثم جاء دور أم موسى عليهما السلام وكيفية إختيار الله تعالى لها، لأن تكون تلك المرأة التقية هي السبب في الحفاظ

على موسى عليه السلام دون غيرها من النساء والرجال، وفي ذلك إلتفاتة مهمة، بأن تكون هناك أدوار مصيرية لا تؤديها إلّا المرأة. ومن ثم تدرج الأمر ليكون بصورة أوضح وأكثر أهمية تعلو من خلاله المرأة الى رتبة أعلى، وعلى المجتمع أن يغير نظرته السابقة عن المرأة، فالمرأة ليست مجرد عنوان لقضاء الشهوة والإثارة والفتن والرجس، كما يذهب كتّاب التوراة، وإنما هي متى ما تكاملت وطهرت تستطيع أن تحمل أثقل الأمانات، وأن تؤدي أخطر الأدوار التي لا يستطيع الرجال أن يؤدوها، ولذلك اختيرت مريم عليها السلام تلك المرأة العفيفة العابدة، لكي تربط بأعظم مهمة اعجازية بعد آدم عليه السلام لتكون رمزاً يولد من خلاله ولد بلا أب لتهتز كهنة اليهود وليبعدوا عن منصة استعباد الناس، ولتعطيهم مريم عليها السلام درساً بليغاً يضادّ ويعارض ما ذهبوا إليه في نظرتهم للمرأة، فهم بعد أن رسموا سياسة التعامل مع المرأة على أنها أداة مطيعة بأيديهم يستخدموها لتحقيق أغراضهم الدنيئة، ها هي المرأة المتمثلة بمريم عليها السلام

كيف ترغمهم على إتباع ما أتت به بين يديها، لتخبرهم بولادة النبي الجديد، وعليهم أن يتركوا ما كانوا عليه ويتبعوه.

وهذه تعتبر نقلة وخطوة جديدة في عالم المرأة، ما كانت تحلم بأن تصل لها عن طريق الكد والسعي الإجتماعي ولكن الله تعالى أراد أن يكمل المسير التعريفي بالمرأة وأهميتها وأن يصعد بها طوراً بعد طور، والى أن وصل دور المرأة في العلو وعظم مسؤوليتها في تثبيت الهداية والدفاع عن الرسالة، الى فاطمة الزهراء عليها السلام لتتحمل مهام إيمانية وهدايتية صعبة، استحقت أن يغدق عليها رسول الله صلى الله عليه وآله الكثير من الألقاب والكنى التي ما نال أحد بمثلها أو مشابه لها، وبالتالي وصل الأمر بأن تؤدي دوراً يتم به حماية علي بن أبي طالب عليه السلام والذي يمثل رأس الإمامة الكبرى، من أن تمسّه يد القتل، بعد أزمة السقيفة، ومما أدّى بالتالي الى أن يكسر ضلعها، وهي تمنع القوم من الدخول على علي عليه السلام، حتى نالت الشهادة بسبب آثار ذلك الفعل.

فكل هذه الأمور بينت وهم وبطلان ما يتعاطاه ويتداوله اليهود في توراتهم ضد المرأة ومحاولاتهم المكثفة للتحقير والتقليل من شأن المرأة.

النهايات المرتبطة بالمرأة مع السيد المسيح

أما نهاية عيسى عليه السلام التي تم بعدها صلبه كما يصورها لنا كتّاب الأناجيل، فهي أيضـًا، تخبرنا بأنها كانت نهاية قد ختمت بلقاء عيسى بالمرأة وظهوره لها عند صلبه ودفنه، وخروجه في فجر يوم الأحد ليظهر لمريم المجدلية تاركـًا طلّابه بلا لقاء، إلّا بعد أن تخبرهم مريم المجدلية عن طلب عيسى للقاء بهم وبالرغم من ذلك فإن بعضهم قد شك بعيسى بعد أن رآه وكما يخبرنا بذلك إنجيل يوحنا: (ويوم الأحد جاءت مريم المجدلية الى القبر باكراً، وكان الظلام بعد فرأت الحجر مرفوعـًا عن القبر. فأقبلت مسرعة الى سمعان بطرس والتلميذ الآخر الذي أحبّه يسوع، وقالت لهما: ((أخذوا الربّ من القبر ولا نعرف أين وضعوه)) فخرج بطرس والتلميذ الآخر الى القبر، يسرعان السير معـًا، ولكن التلميذ الآخر سبق بطرس، فوصل قبله الى القبر. وانحنى من دون أن يدخل، فرأى الأكفان على الأرض.

ولحقه سمعان بطرس، فدخل القبر، ورأى الأكفان على الأرض، والمنديل الذي كان على رأس يسوع ملفوفًا في مكان على حدة، لا ملقى مع الأكفان. ودخل التلميذ الآخر الذي سبق بطرس الى القبر، فرأى وآمن، لأنهما كانا بعد لا يفهمان ما جاء في الكتاب وهو أن يسوع يجب أن يقوم من بين الأموات. ثم رجع التلميذان الى منزلهما.

أما مريم المجدلية، فوقفت عند القبر تبكي. وانحنت نحو القبر وهي تبكي، فرأت ملاكين في ثياب بيضاء جالسين حيث كان جسد يسوع، أحدهما عند الرأس والآخر عند القدمين.

فقال لها الملاكان: ((لماذا تبكين يا امرأة)) أجابت: ((أخذوا ربي ولا أعرف أين وضعوه!)) قالت هذا والتفتت وراءها فرأت يسوع واقفًا، وما عرفت أنه يسوع. فقال لها يسوع: ((لماذا تبكين يا امرأة؟ ومن تطلبين؟)) فظنت أنه البستاني، فقالت له: ((إذا كنت أخذته يا سيدي، فقل لي أين وضعته حتى آخذه)). فقال لها يسوع: ((يا مريم)). فعرفته

وقالت له بالعبرية: ((ربّوني)) ((أي يا معلم)).

فقال لها يسوع: ((لاتمسكيني، لأني ما صعدت بعد الى الأب، بل إذهبي الى إخوتي وقولي لهم: أنا صاعد الى أبي وأبيكم، إلهي وإلهكم))

فرجعت مريم المجدلية وأخبرت التلاميذ بأنها رأت الربّ وأنه قال لها هذا الكلام) يوحنا: الإصحاح ٢٠: ١-١٨.

وفي إنجيل لوقا يظهر شك التلاميذ وهم يرون عيسى بعد قيامه (وبينما التلميذان يتكلمان، ظهر هو نفسه بينهم وقال لهم: ((سلام عليكم)) فخافوا وارتعبوا، وظنوا أنهم يرون شبحاً. فقال لهم: ((ما بالكم مضطربين، ولماذا ثارت الشكوك في نفوسكم؟ انظروا الى يديَّ ورجليّ، أنا هو إلمسوني وتحققوا. الشبح لا يكون له لحم وعظم كما ترون لي) انجيل لوقا: الإصحاح ٢٤: ٣٦-٣٩.

فهذه الإخبارات التي يصورها لنا إنجيل يوحنا واضحة في بعدها الدلالي في توضيح الرؤية نحو المرأة وإظهار قدرتها على تأدية أدوار لم تكن تحسب وتتصور، إلّا للرجال، حسب الرؤية الذكورية التي صيغت بيد كتبّة التوراة.

فبينما لم يحضر ويرابط قرب القبر المزعوم لعيسى عليه السلام بعد صلبه أحدٌ من تلاميذه، بالرغم من ملازمتهم له وعشرتهم الطويلة معه وتلقي تعاليمه وتوصياته بالمباشر، نرى كيف أن مريم المجدلية تلك المرأة المؤمنة قد رابطت وإلتزمت بالحضور والتواجد بقرب القبر تنتظر تحقيق ما أُخبر به عيسى عن قيامته بعد ثلاثة أيام من صلبه، هذا الأمر الذي قد غاب عن ذاكرة تلاميذه، ولم يكن له أثر يحركهم تجاهه: (وكان التلاميذ مجتمعين في الجليل، فقال لهم يسوع: سيسلم ابن الإنسان الى أيدي الناس، فيقتلونه، وفي اليوم الثالث يقوم من بين الأموات. فحزن التلاميذ كثيراً.) متي: الإصحاح ١٧: ٢٢- ٢٣.

ومن ثم تقوم بإخبار كل من سمعان بطرس والتلميذ

الآخر ليحضرا مكان القبر وليشاهدا بأعينهم ما حدث، ولكنهم بالرغم من ذلك، قد رحلا أيضـًا، ولم يلازما مكانهما، عسى أن تتم لهما رؤية عيسى عليه السلام، كما أخبر هو عن نفسه، فبقيت تلك المرأة المؤمنة والمتيقنة برؤية عيسى، ملازمة للقبر وهي تبكي من حرارة الحزن والشوق لنبيها عيسى المفقود، حتى ظهر لها فعلاً بعد أن تيقن من صدق إيمانها، وقوّة عقيدتها وتصديقها به، وبالتالي لتكون هي الوسيطة بينه وبين تلاميذه ولولاها لما كان للتلاميذ أي نصيب معه.

وهكذا نرى كيف إنّ حياة عيسى أوجدتها امرأة لوحدها بقدرة الله تعالى وكيف أنها قد خُتِمت أيضـًا بإمرأة، لتكون هي الرسالة الأخيرة التي يرسل بواسطتها عيسى لتلاميذه مبتغاه الأخير.

وفي هذا السياق، بينما يذهب فراس السواح الى استقراء وجود مريم عليها السلام من زاوية ضيقة جداً، وضمن مجال

صامت يبتعد شيئاً فشيئاً عن تحديد الرؤية المثالية للمرأة على أرض الواقع، وبعبارة أدق فهو يريد أن يرسم صورة رمزية ويصّر على تأطيرها ببعد أسطوري لن تستطيع أية امرأة أن تستفيد منه في إثبات وجودها الكوني، وأثره المباشر في الحياة الدنيا وهي تساير الرجل جنباً الى جنب لتحقيق ما وجدا من أجله، فيقول: (ولكن التقاليد المسيحية ما تلبث أن تعيد للأم الكبرى سابق مجدها وسلطانها، وتبدأ مريم العذراء رحلتها من أم يهودية تقية، كما تبدو في الأناجيل، الى أمّ كونية ووالدة للإله الذي إقترب من البشر بدخوله في تاريخهم وتجسده في عالمهم، ومروره عبر جسد الأم الكبرى طفلاً لها. فمريم العذراء التي ظهرت في فلسطين وعاشت هناك عدداً من السنين ليست إلّا تجليّاً في المكان للأم الكبرى مريم الموجودة قبل الزمان وقبل المكان والتي ستبقى بعد فناء المكان وتوقف جريان الزمان).[1]

---

(١) لغز عشتار: فراس السواح، نشر دار التكوين، دمشق، ط٥، ٢٠١٧م: ص٦٠.

ثم يستشهد بأقوال بعض رجال الكنيسة فيقول: وهناك بعض عظات الكنيسة نقرأ فيها: (إن من بنى السموات واحتواها، والذي صنع الكون وما وراء الكون، الذي لا مقر له، قد جعل نفسه فيها طفلاً صغيراً، وجعل منها مقر إلوهيته الفسيح الذي يملأ كل شيء وحيداً، ولا حدّ له، تجمع فيها دون أن يتصاغر).

ثم ينقل قولاً للقديس جرمانوس بطريرك القسطنطينية في القرن الخامس الميلادي في شرحه لعقيدة انتقال مريم الى السماء: (لقد كان مستحيلاً أن يبقى ذلك الجسد الطاهر محجوزاً عليه داخل قبر الأموات، ذلك الإناء الذي إحتوى الله بالذات، ذلك الهيكل الذي مدّه بالحياة، الإناء الذي امتلأ الله الذي حمل الله. كنت ايتها العذراء المجيدة الجسد الذي إستراح فيه هو).[1]

فهو يريد هنا أن يحول نص الإنجيل الى مجموعة من

(١) المصدر نفسه: ص٦٠.

التقاليد ويعزلها عن النص التوراتي، الذي لا يرى أية أهمية للمرأة حسب نظرته الدونية لها، ومن ثم يحصرها برؤية لا تختلف عن الرؤية التي تتوجه صوب الآلهة الأنثى لدى الإغريق واليونان والحضارات القديمة الأخرى حيث تصاغ حولها الأساطير بأطر لا يعرف منها إلّا التشابك والتداخل، ومن ثم ليأتي أصحاب الأركيولوجيا ليملأوا التاريخ البشري بإرث مفتعل وليفرضوه على الإنسانية فرضًا مقيتًا، وكلما أوغلوا فيه ابتعدوا عن الحقيقة اشواطًا واشواط. وبذلك سوف تحرم البشرية عن نيل المعارف الحقيقية في تلك الأزمات الغابرة، لأنها سوف تتلهى بأضغاث أحلام، وبموروثات وآثار بشرية كانت ضد الدين، وضد الحقائق والهداية التي تأتي بها النبوّة من السماء، والتي دائمًا ما تكون ضد أهواء ومطامع من يتركون لنا تلك الآثار المقصودة في إثارة الشك والريبة، لكي تلفت الأنظار حولها وتشد طالبي البحث وكشف الحقائق نحوها دون غيرها، بإعتبار توفرها، وكثرة إنتاجها الأحفري الذي خلفوه لنا.

فتعامل مع النص الديني وطهورية مريم عليها السلام بالمنظور الميثولوجي وإعتباره فرع من أصول الديانات الخرافية القديمة، التي عاشت زمن الرمز الذي دأب عليه في كتاباته، ليجعل منه دليلاً على أن الدين ما هو إلّا نتاج ذهن بشري خالص، يمثل تصوراتهم نحو الكون والحياة. تلك التصورات التي تنبعث من الخوف والإحتياج تارة، والى البقاء والخلود تارة أخرى. فبدلاً من أن يبحث عن قراءات أكثر عمقاً، وأصدق قولاً، وأكثر وضوحاً نحو الولادة المريمية، كما وجدت في القرآن الكريم، بإعتبار هناك نقطة إلتقاء وإستمرار بنفس المدلول بآية مريم عليها السلام وهي تهب البشرية تلك الولادة الاستثنائية والإعجازية، بالمعنى العميق لهذا اللفظ، لتشكل بالتالي مرحلة من مراحل الوضوح والبيان الديني لمفردة قد أحاطت بها بعض الشبهات والضبابية لطول الزمن، وقصور ذات اليد عن تناولها بالشكل الذي وجدت به واقعاً. لينتقل إنتقالة غير موفقة، وهو يحاول أن يلوي عنق النّص عنّوة ليجعله متصلاً

أو مكملاً أو معوّضاً عن نصوص ميثولوجية الآلهة الأنثى وسيطرتها على مخيلة كثير من بشر العصور القديمة وإنبهارهم بما تهبه لهم من ولادات يعجز العنصر الذكوري عن تقديمه.

بينما الحقيقة واضحة وتتجلى بأقل تركيز، بأن النص الإنجيلي ما ذكر مريم عليها السلام، إلّا ليعطي دوراً مهماً للمرأة، وليحرك فيها الطموح نحو الرقي والتكامل الإنساني، بحيث تصل الى أعلى المراحل فيه وليس هذا فقط، بل ليحولها بالتالي الى أن تكون في بعض الأحيان ذات بعد استثنائي، بحيث لا يتحقق هذا البعد إلّا بها وبمفردها، لتترك الرجل بعيداً عنها في هذا الأمر، وفي ذلك إشارة واضحة لتلك القيمة الأنثوية في مسيرها البشري.

وهنا بدلاً من أن يبحث عن قرائن وأدلّة أكثر وثوقاً وإعتماداً، ليعمق هذا المعنى ومداليله، ذهب باحثاً في أساطير الأولين لتكون له الملجأ والمعتمد فيما وصل إليه، تاركاً ذلك التوثيق للتأريخ الذي يُعنى بإمومة مريم لعيسى

عليهما السلام، وذلك الإصطفاء الإلهي لها لتكون أمّاً بلا رجل. وبدلاً من أن يستفاد من هذا المحرك لتحرير المرأة من كثير من المظالم التي وقعت عليها. ذهب بمنظور سلبي جامد ليبقى في المخزون الذهني لا يتحرك إلّا أن تثيره ذاكرة القصّاصين والكتّاب، وحكايا المتطفلين على ميراث الأنبياء، من دون أن يقدم أية خطوة إيجابية تكون المرأة بأمس الحاجة لها، مكتفياً بالتنظير والتهويل لا غير.

إذن نفهم من ذلك أن مريم عليها السلام اكتسبت قيمتها القدسية من ناحيتين هما:

١. أنها حملت من غير أن يمسها بشر.

٢. أنّها أنجبت رسولاً من أولي العزم وهو عيسى عليه السلام.

وهنا لو تساءلنا، لماذا استدعت نبوّة عيسى أن تبدأ رحلتها الوجودية من امرأة تقية ورعة، لم يمسسها بشر قط،

ليكون عيسى عليه السلام رسولاً يطأ هذه الدنيا من غير أب؟ فإذا أردنا أن نذكر سبباً من الأسباب المؤدية لذلك، فلابد لنا من ذكر سبباً يتعلق بالسياق العام الذي نطرحه وهو: إنّ اليهود قد تمادوا كثيراً في إمتهان المرأة، وعرضها كبضاعة للإغراء والغواية، وقد استشرى هذا الأمر كثيراً في المجتمع اليهودي أين ما حلّوا. وبذلك ساهم هذا الفعل بإمتهان المرأة لنفسها، وبالتالي أصبحت عندها قناعة كاملة، بأنّها وجدت لتؤدي ما يطلب منها من أعمال غواية وزنا وغيرها من الأمور التسافلية على أكمل وجه، دون أن يكون لها رأياً بالضد، فبمجرد أن يقال لها بأن ذلك يؤدي الى تقديم خدمة لليهود، وجلب المصالح لهم، وانها لا تتم إلّا من خلال تلك الأفعال المشينة، هبت للإستجابة دون أن تراجع الأمر!.

فظهرت مريم القديسة لتغير هذا المفهوم، وتقلب الطاولة على رؤوس الكهنة، وما جاء زوراً في التوراة بحقها، لتصحح بالتالي مسار ذلك النهج المنحرف في نظرته الدونية

للمرأة. وحولتها من شيطان وشرّ مستطير، وجسد نجس، الى طهارة وعفة، بل أكثر من ذلك، فإذا كانت المرأة عند اليهود لا تستخدم إلّا كجسد للمتعة، فها هو جسدها لم يمسه بشر قط، لتؤدي دوراً خالياً عن أي مسمى للمتعة، ومن ثم لترتقي في علوها وتطرح للإنسانية أعظم رجل في ذلك الزمن، ليستحق أن يكون هو الرسول المنتظر، لينقذ اليهود من ضلالة التيه وحيرة الجهل والعمى.

فكانت مريم عليها السلام هي الشاهد على تلك الأكاذيب والمفتريات التوراتية بخصوص المرأة، وها هي إختيار الله تعالى لتكون أمّاً لعيسى من غير أب. وبذلك قد تحدت اليهود، بأي شيء سيجيبون عن وضاعة المرأة في توراتهم، وها هي تأتي حاملة معها وسيلة صدقها، التي ما كانت لتتم لولا تكلم عيسى عليه السلام في المهد صبياً، لتطمر بعدها أحلام اليهود في الاستمرار بتطبيق تلك الأكاذيب، وعندما اصطدموا بهذا الأمر، فامّا أن يصدّقوا بعيسى وامّه، ويتركوا جميع ما كان قد قدّم من قبلهم كقراءة

للتوراة، واما أن يكذّبوا بنبوة عيسى وطهارة مريم، من أجل الإستمرار بالذي خطط له من قبلهم. وهكذا فقد كذّبوا بعيسى عليه السلام ولم يؤمن به إلّا القليل، بل الأكثر من ذلك سعوا للوشاية به عند الحاكم الروماني بيلاطس، ممّا تسببوا فيما بعد بصلبه، ولولا تقدير الله تعالى بأن ينقذه بإلقاء الشبه على الخائن يهوذا الأسخريوطي ليصلب مكانه، لكان موت عيسى عليه السلام محققا لا محال.

وحينئذ فإن المرأة التي تدّعون بأنّها هي السبب في إرتكاب آدم للمعصية، ومن ثم هبوطه الى الأرض، وعاش ما عاش من ظروف الكد والسعي المرهق بسببها، فها هي قد أختيرت من قبل الله تعالى لتكون طريقاً للصعود الى عالم الجنان والرضا الإلهي، بسبب عيسى الذي قدّمته لعالم الدنيا ليكون ذلك المنار، وذاك الصراط المستقيم الذي من سار على نهجه أعيد الى عالم الخلق بأحسن تقويم، صعوداً على سلّم التكامل، ليكون لمريم عليها السلام فضلاً مع كل خطوة إيمان يسير بها الوجود بعد عيسى عليه السلام.

وبعد كل هذا الذي ذكر في الأناجيل حول المرأة، ولكن مع كل أسف فإن رجال الدين المسيحيين قد أغفلوا هذا الأمر، واستمروا في نهجهم الذي طرحه اليهود في تعاملهم مع المرأة، فلم يتعرضوا الى وضع نظام تكفل من خلاله المرأة حقوقها الخاصة والعامة، وإعطاء حريتها التي كفلتها لها الإنسانية، ولم يترك التشريع المسيحي أثراً محسوساً في البعد الإجتماعي والأخلاقي، تظهر فيه محاسن وجمالية المرأة، وإنّما رضوا بأن يتشكلوا بالشكل الذي طرحته الأخلاق والطبائع السابقة في تعاملهم مع المرأة. وهذا الأمر يبدو واضحاً في كتاباتهم وتصوراتهم عن المرأة، وكما بيّناه في الصفحات السابقة.

خطيئة حواء

والآن لنأتي ونرى مَنْ مِن الأديان طرح هذه المسألة وجذّر لها بشكل واضح وجلي؟ والحقيقة اننا لن نبالغ إذا ما قلنا بأن النصيب الأوفر في هذا الأمر سيكون لليهود، وما كتبوه في توراتهم عن خطيئة حواء وما سببته بالتالي من جر آدم ليشاركها الخطيئة الى أن تم غضب الربّ عليها، مما زاد في الضغط عليها في عالم الدنيا من ناحية الجسد ومن ناحية التعامل معها، أي قل زيادة الضغوط المادية والمعنوية عليها دون الرجل، ولنقرأ بعضاً من تلك النصوص التوراتية:

- (وكانت الحيّة أمكر وحوش البريّة التي صنعها الربّ الإله، فسألت المرأة: أحقّاً أمركما الله ألّا تأكلا من جميع شجر الجنة؟ فأجابت المرأة: يمكننا أن نأكل من ثمر الجنة كلها، ماعدا ثمر الشجرة التي في وسطها، فقد قال الله: لا تأكلا منه ولا تلمساه لكي لا تموتا. فقالت الحيّة للمرأة: لن تموتا، بلْ إنّ الله يعرف أنّه حين تأكلان من ثمر هذه الشجرة

تنفتح أعينكما فتصيران مثله، قادرين على التمييز بين الخير والشر. وعندما شاهدت المرأة أن الشجرة لذيذة للمأكل وشهيّة للعيون، ومثيرة للنظر قطفت من ثمرها وأكلت، ثم أعطت زوجها أيضاً فأكل معها، فانفتحت للحال أعينهما، وأدركا أنهما عريانان، فخاطا لأنفسهما مآزر من أوراق التين. ثم سمع الزوجان صوت الربّ الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار، فأختبئا من حضرة الربّ الإله بين شجر الجنّة. فنادى الربّ الإله آدم: أين أنت فأجاب: سمعت صوتك في الجنّة فاختبأت خشية منك لأني عريان، فسأله: من قال لك إنك عريان؟ هل أكلت من ثمر الشجرة التي نهيتك عنها؟ فأجاب آدم: إنها المرأة التي جعلتها رفيقة لي. هي التي أطعمتني من ثمر الشجرة، فأكلت. فسأل الربّ الإله المرأة: ماذا فعلت؟ فأجابت: أغوتني الحيّة فأكلت. فقال الربّ الإله للحيّة: لأنك فعلت هذا، ملعونة أنت من بين جميع البهائم ومن جميع وحوش البريّة، على بطنك تسعين، ومن التراب تأكلين طوال حياتك، وأثير عداوة دائمة بينك وبين

المرأة، وكذلك بين نسليكما. هو يسحق رأسك وأنت تلدغين عقبه.

ثم قال للمرأة: أكثر تكثيراً أوجاع مخاضك فتنجبين بالآلام أولاداً، وإلى زوجك يكون اشتياقك، وهو يتسلط عليك. وقال لآدم: لأنك أذعنت لقول امرأتك، وأكلت من الشجرة التي نهيتك عنها، فالأرض ملعونة بسببك وبالمشقة تقتات منها طوال عمرك. شوكاً وحسكاً تنبت لك، وأنت تأكل عشب الحقل. بعرق جبينك تكسب عيشك حتى تعود إلى الأرض، فمن تراب أخذت، وإلى التراب تعود. وسمّى آدم زوجته (حواء) لأنها أمّ كلّ حيّ. وكسا الربّ الإله آدم وزوجته رداءين من جلد صنعها لهما.

ثم قال الربّ الإله: ها الإنسان قد صار كواحد منّا، يميز بين الخير والشّر. وقد يمد يده ويتناول من شجرة الحياة ويأكل، فيحيا إلى الأبد. فأخرجه من جنّة عدن ليفلح الأرض التي أُخذ من ترابها. وهكذا طرد الله الإنسان من جنّة عدن، وأقام ملائكة الكروبيم، وسيفاً نارياً متقلباً شرقي الجنّة

لحراسة الطريق المفضية إلى (شجرة الحياة) سفر التكوين: الإصحاح الثالث.

نلاحظ من خلال هذا النص التوراتي، بأن الخطيئة الأولى التي تسببت بخروج آدم من الجنّة كانت هي حواء مع وجود عدّة أخطاء أخرى قد ارتكبتها حواء تسببت بالتالي بزيادة آلامها وتعدد عقوباتها، فقد جاء بالنص:

١- أكلها من ثمر الشجرة التي منعها الله تعالى من الإقتراب منها ولمسها والأكل منها.

٢- تصديقها بالشيطان بعد أن تمثل بالحيّة، حيث قالت لها: (لن تموتا، بلْ إنّ الله يعرف أنّه حين تأكلان من ثمر هذه الشجرة تنفتح أعينكما فتصيران مثله، قادرين على التمييز بين الخير والشر) ونسيت في نفس الوقت النهي الصادر من قبل الله لها ولآدم من الإقتراب من الشجرة وأكل ثمرها، لأنه سيتسبب بموتهما.

٣- لم تكتف هي بالخطيئة لوحدها، وإنّما أعطت لزوجها

آدم فأغوته فأكل منها، وذلك بإعتراف آدم نفسه، حين سأله الله عن سبب أكله من تلك الشجرة، حين أجاب: إنها المرأة التي جعلتها رفيقة لي، هي التي أطعمتني من ثمر الشجرة.

٤- بسبب خطيئتها قال لها الربّ: أكثر تكثيراً أوجاع مخاضك فتنجبين بالآلام أولاداً.

٥- تسلط زوجها عليها.

٦- تسببت بمشقة آدم وأنه سيشقى طول عمره.

وبملاحظة تلك النقاط، نرى كيف أنّ حواء قد سمحت للشيطان أن يتلاعب، ويغير قناعاتها، التي كان من المفروض أن تكون ثابتة، ومن ثم تصرفت بإندفاع دون أن ترجع وتشاور شريكها في الحياة، بإعتبار أن أي تصرف من أحدهما سوف يؤثر على الآخر. ثم انها لم تكتفي بأن تخطئ هي وتتحمل نتائج خطئها، وإنّما تحركت وجعلت زوجها يشاركها في خطيئتها، حتى تسببت في إخراجهما من الجنّة.

هذا مضافاً الى ما كتب عليها من تحمّل الآلام والنقص في القيمة المعنوية لها أمام الرجل.

وفي هذا السياق يوجد رأي يقول: إن ما جاء في رواية التوراة حول خطيئة حواء يشير الى عدّة نقاط، كما إنها متخمة بالرمزية وقابلة للتفسيرات المختلفة. إن سفر التكوين لا يرى فقط أن الانخداع من الشيطان، وخداع آدم أيضا من عمل حواء، وإنما يقدم حواء في صورة من لديه الاستعداد الكامل والرغبة في عصيان الأمر الإلهي، وتفسير ذلك أن انخداع حواء يتم بسرعة وسهولة، حتى إن قارئ الكتاب المقدس يشك أصلاً في أن فكرة العصيان لله تعالى تتعلق بالشيطان حصراً، وأن حواء نفسها لم تكن تفكر في مثل هذه الفكرة. ويكفي من أجل إثبات هذا الإدّعاء ان نقارن بين أمر الله الصادر لآدم والشرح الذي تقدمه حواء للشيطان عن هذا الأمر، ونرى اي فرق يوجد بين الامر وشرحه. إننا نقرأ أمر الله في سفر التكوين في الاصحاح الثاني: (واوصى الرب الإله آدم قائلاً من جميع شجر الجنة تأكل اكلاً. وأما شجرة معرفة

الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتـًا تموت).
لكننا نقرأ في الاصحاح الثالث: (وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله، فقالت للمرأة أحقـًا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة. فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل. وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنّة فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا). ومواقع الإختلاف بين الأمر الالهي والرواية التي تقدمها حواء عن هذا الأمر هي على النحو الآتي:

أمر الله الأصلي	رواية حواء لهذا الأمر
١ – أوصى الربّ الإله آدم قائلاً	١ – فقال الله
٢– من جميع شجر الجنة تأكل	٢– من ثمر شجر الجنة تأكل
٣– شجرة معرفة الخير والشر	٣–الشجرة التي في وسط الجنّة
٤– أنت	٤– أنتما
٥– فلا تأكل منها	٥– لا تأكلا منه ولا تمسّاه
٦–لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت	٦– لئلا تموتا

ان مواضع الإختلاف هذه تنتهي بنا في الحقيقة الى التقليل من قوة الولاية الإلهية (الموضع الاول)، وتحول السخاء الى نوع من الإذن الطائش (الموضع الثاني)، والتقليل من أهمية الشجرة وتحويلها الى أهمية مكانية (في وسط الجنّة)، وكأن الشجرة نفسها لا قيمة لها (الموضع الثالث)، والتدخل والتصرف في نطاق أمر الله، وهو عمل لا يليق، لأن العهد القديم جاء فيه: (لا تزد على كلماته- كلمات الرب - لئلا يوبخك فتكذب) و (ولا تزيدوا على الكلام الذي أنا أوصيكم به ولا تنقصوا منه لكي تحفظوا وصايا الربّ إلهكم التي أنا أوصيكم بها) (الموضع الرابع والخامس)، والتخفيف من صلابة الأمر وقوته (الموضع السادس)، إن هذه التغيرات وما صاحبها من حذف أو إضافة محسوبة ومهمة الى حد أنه لا يمكن أن تكون من قبل المصادفة، أو من نوع التغييرات الطفيفة التي تحدث عند الإقتباس من أحد والنقل عنه: إنها تشير الى قبول الإيحاء، بل حتى الى الإستعداد للموافقة الذي يتضح من جانب حواء في مقابل

الحيّة (الشيطان). ولو كانت المسألة تقتصر على انخداع حواء من الشيطان فقط لوجب أن يكون حواء شخصاً طاهراً لا يضمر سوء النية قبل أن يبدأ الشيطان إغواءه ووسوسته لها، وكان يجب عليها على الأقل أن تنقل إليه أمر الربّ كما هو، لا أن تقلل من أهميته وصلابته وقيمته بشتى الصور. لقد مهدت حواء السبيل للشيطان قبل أن يغويها، وفتّح الأخير براعم الاستعداد عند حواء نفسها.[1]

وبملاحظه تلك الامور التي ثبتها كتبة التوراة ونحلوها الى حواء، يتبين لنا الى أي مدى كان كاتب التوراة متأثراً بعدّة أبعاد منها:

أولاً: المحيط الإجتماعي وما كانت تمثله المرأة في ذلك المحيط، بشكل عام، والمحيط الخاص بالمجتمع اليهودي الذي كان لا يزال يعاني من آثار السبي البابلي وما يمثله من

---

(١) ينظر: المرأة خلقها ودورها الإجتماعي، مصدر سابق: ص٧٦ وما بعدها نقلاً عن:

Reuvan Kimelman ((The Seduction of Eve and the Exegetical Politics of Gender)) p244-245.

إنتهاك لكثير من الأمور الخاصة بالفرد اليهودي لاسيما المرأة منهم.

ثانياً: الإسقاطات النفسية لكاتب التوراة نحو المرأة، فهو بتلك الحال لن يبخل في إلصاق أمر مشين بها ليحمّلها تبعات ذلك الأمر حتى يبقي السيادة والتحكم بيد الرجل.

ثالثاً: كان لكاتب التوراة مآرب خاصة، و هو يطرح المرأة بتلك الصورة، ومن أهم تلك المآرب تحقيق ما يطمح إليه اليهود من خلال استخدام النساء كسلاح مهم في إحداث الفساد والتغيير، وحتى التأثير على الرأي العام السائد في ذلك الحين.

رابعاً: والذي ساعد كاتب التوراة على إظهار المرأة بهذا الشكل من إرتكاب الخطايا، هو ما وجده في بعض الحضارات وما رافقتها من أساطير والتي سبقت كتابة التوراة، وهي تعرض علاقة المرأة بالرجل. وكمثال على ذلك؛ إذا أتينا الى ملحمة جلجامش، وجدنا في (إنكيدو)

صورة عن الإنسان الأول الذي تم خلقه من طين، وعاش في الطبيعة حياة حرة طليقة قبل أن يلتقي بالمرأة التي نقلته، بعد الفعل الجنسي، من حياة البداءة والحرية الحيوانية المفرغة من المضمون، إلى حياة الجماعة والحرية ذات المضمون. ووجدنا في آدم الأول تكراراً لإنكيدو.

فآدم قد خلق من طين وعاش في الطبيعة. يأكل من حيث شاء رغداً، إلى أن جاءت حواء وأطعمته من ثمرة الجنس المحرّم، وخرجت به من عالم حرية الطبيعة الى الحرية الانسانية ذات الهدف والمضمون، فشكلا وأولادهما الجماعة البشرية الأولى التي تعمل وتكد وتلاقي الموت من أجل استمرار الحضارة التي ابتدأت معهما. وتشكل العلاقة مع المرأة في كلا القصتين، نوعـًا من طقس العبور، أو التعدية initiation الذي نقلهما من السذاجة الأولى إلى المعرفة. ففي سفر التكوين يغدو آدم وحواء عارفين بالخير والشر، و(تنفتح أعينهما) عقب المباشرة الجنسية. ثم يخرجان من جنة عدن، عالم الطبيعة الحيوانية، الى الأرض عالم الطبيعة

الإنسانية، ليعملا ويكدّا مبتدئين الفعل الحضاري الخلّاق الأول، في دنيا الإختيار والحرية الإنسانية ذات المضمون والغاية. وكذلك الأمر في ملحمة جلجامش حيث:

تعثر إنكيدو في جريه، صار غير الذي كان
لكنه غدا عارفاً، واسع الفهم

ثم تقوده المرأة إلى مساكن الرعاة، حيث يبدأ بممارسة حريته الملتزمة، فيحرس قطعان الماشية، ويطارد الأسود، ليكفي الرعاة شرّها. وبعدها ينتقل الى حياة المدينة حيث يقود جلجامش حملته الكبرى ضد رمز الشر. وكما كانت الحية مسؤولة في ملحمة جلجامش عن خسارته للنبتة التي تجدد الشباب، كذلك كانت في قصة آدم وحواء التوراتية، مسؤولة عن خسارتهما للحياة الخالدة في جنة عدن. وجنة عدن التي أعدت للخالدين، في التصور التوراتي هي المكان الذي تصدر منه الأنهار: (وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة، ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس) التكوين2: 8-

14، وكذلك الأمر في المكان الذي أسكنت به الآلهة أوتنابشتم وزوجته الخالدين، إذ تصفه الملحمة في أكثر من موضع بأنه يقع حيث فم الأنهار.(١)

وكما يوضحه هذا المقطع من اللوح الأول من ملحمة جلجامش:

أما إنكيدو الذي كان مولده في التلال (السهوب)

والذي يأكل العشب مع الظباء، ويرد الماء مع الحيوان

ويفرح لبه مع حيوان البرّ عند الماء

فان البغي رأته، رأت الرجل الوحش

أبصرت المارد الآتي من اعماق البراري (السهوب)

(فأسر اليها الصياد): (هذا هو يا بغي فأُكشفي عن نهديك

---

(١) ينظر: جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة: فراس السواح، نشر دار التكوين، دمشق، ط١، ٢٠١٦م: ص٢٧٢ و ٢٧٣.

اكشفي عن ... لكي يتمتع بمفاتن جسمك)

لا تحجمي، بل راوديه وابعثي فيه الهيام

فانه متى رآك وقع في حبائلك

أنضي عنك ثيابك لينجذب إليك

علمي الوحش الغر فن وظيفة المرأة

ستنكره حيواناته التي ربيت معه في البرية

إذا انعطف إليك وتعلق بك

فأسفرت البغي عن صدرها وكشفت عن ...

فتمتع بمفاتن جسمها

نضت ثيابها فوقع عليها

وعلّمت الوحش الغر فن المرأة، فانجذب إليها و تعلق بها

ولبث إنكيدو يتصل بالبغي ستة أيام وسبع ليال

وبعد أن قضى وطره منها

وجه وجهه إلى الفه من حيوان البر

فما أن رأت الظباء (إنكيدو) حتى ولت عنه هاربة

وهرب من قربه حيوان البرّ

هم (إنكيدو) أن يلحق بها ولكن شلّ جسمه

لقد خذلته ركبتاه لما اراد اللحاق بحيواناته

أضحى انكيدو خائر القوى لا يستطيع أن يعدو كما كان يفعل من قبل

ولكنه صار فطناً واسع الحس والفهم.

رجع وقعد عند قدمي البغي

وصار يطيل النظر إلى وجهها ولما كلمته أصاغ بالسمع إليها

كلمت البغي (انكيدو) وقالت له:

(إنك حكيم يا انكيدو، وانت مثل إله

فعلّام تجول في البرية مع الحيوان؟

تعال آخذك بيدك إلى (اوروك) الحمى والسرور

إلى (البيت) المشرق، مسكن (آنو) و (عشتار)

حيث يعيش جلجامش المكتمل الحول والقوّة

المتسلط على الناس كالثور الوحشي[١])

والآن لو تمعنا بالنص الملحمي والنص التوراتي لوجدنا التأثر واضحاً بالنسبة لكتبة التوراة بالنص الملحمي أو بغيره، لأنهم وجدوه مناسباً لتحميل المرأة تبعات ما عملت، وبالتالي عليها أن تدفع ثمن ذلك غالياً، ولا يهم بعدها من

(١) ملحمة كلكامش: طه باقر، نشر وزارة الإعلام في الجمهورية العراقية، ط١، ١٩٧٥م: اللوح الأول ص٤٢ وما بعدها.

الإملاء عليها ما يشبه العقوبات القاسية.

والشيء الملفت للنظر أن التوراة الحقيقية التي أنزلت على موسى عليه السلام قد كتبت في عهده، ولكنهم لم يعتمدوا عليها، لأنها إختفت دون معرفة الأسباب، فاليهود قد ذكروا بأن موسى قبيل وفاته كتب التوراة واعطاها لحاملي التابوت وفي هذا قالوا في سفر التثنية (٩-٣١): (وكتب موسى هذه التوراة وسلّمها للكهنة من بني لاوي حاملي تابوت عهد الربّ، ولجميع شيوخ إسرائيل وأمرهم موسى قائلاً: في نهاية السبع السنين في ميعاد سنّة البراء في عيد المظال حينها يجيء جميع إسرائيل لكي يظهروا أمام الربّ، إلهك في المكان الذي يختاره، تقرأ هذه التوراة، أمام كل إسرائيل في مسامعكم).

ثم ذكر اليهود في خاتمة هذا السفر السبب الذي لأجله دوّن موسى عليه السلام التوراة، فقالوا في سفر التثنية (٢٤ - ٣١): (فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب إلى تمامها، أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الربّ

قائلاً: خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الربّ إلهكم، ليكون شاهداً عليكم، لأني أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة. هو ذا وأنا بعد حي معكم اليوم قد صرتم تقاومون الربّ فكم بالحريّ بعد موتي).

وذكر اليهود في سفر يشوع (يوشع) كتب التوراة مرة أخرى على أحجار المذبح حسب وصية موسى عليه السلام ، وفي هذا قالوا : (حينئذ بنى يشوع مذبحاً للربّ إله إسرائيل في جبل عيبال ... وكتب هناك على الحجارة نسخة توراة موسى التي كتبها أمام بني إسرائيل ... وبعد ذلك قرأ جميع كلام التوراة البركة واللعنة حسب كل ما كتب في سفر التوراة).[1]

وهنا يوجد شيء مهم أود التعرض له وهو؛ إن في هذا الوجود أمور ثابتة ولها صفة تكوينية وأخلاقية لا يتدخل

---

(١) للزيادة في هذا الموضوع، ينظر: الدولة العادلة يوتوبيا أم واقع، للمؤلف: ص١٤٢ وما بعدها.

التشريع في تغييرها وإعطاء بدائل عنها، كما يحدث في نسخ الأحكام وإعطاء البدائل عنها أو رفعها بالكلية دون بديل، لتكون فاعلة في زمن ما، وفي زمن آخر تزال أهمية وجودها، ومن هذه الأمور مسألة الإخبار عن كيفية خلق آدم وحواء، إذ لا يمكن أن يأتي دين ويقرر كيفية معينة لخلقهما مبيناً العناصر الرئيسية فيه، ثم يظهر دين لاحق ليغير من هذه الحقيقة، ويحولها الى بعد آخر بعناصر مختلفة عن الأولى. هذا بإعتبار أن الدين واحد في إخباره عن الخلق تكويناً، لأن مسألة كيفية خلق آدم عليه السلام لا يمكن أن تتغير عبر التاريخ، ومهما تبدل الزمان أو المكان، فالطينة هي الطينة والنفس هي النفس وآدم هو آدم، لذلك ستصدق كل الأديان في طرحها وتناولها لمثل هذه المسألة، نعم قد يكون التفاوت في القيمة الإخبارية بحسب السعة والتبيان المفصل أو المجمل فيما بينها.

ومن هذه الأمور الثابتة أيضاً هي مسألة الأخلاق وبعدها القيمي، فلا يمكن للدين أن يهين وينتقص من كرامة

الإنسان- المرأة والرجل على حد سواء- أو يتذبذب في تعامله معه، بحيث يكرمه مرّة ويهينه مرة أخرى، فهذا الأمر محال، فالدين من محاوره الرئيسية في هذا الوجود هو الإنسان، وما نزل الدين إلّا من أجله، وبيان أنجع الأمور لتربيته وكماله، فالإنسان له قيمة، إن شعر بها وسار للوصول الى أعاليها، فاق كل الموجودات، وصعد علواً حتى فوق الملائكة.

فإذا كان اليهود قد تعمدوا إخفاء حقيقة المرأة ومدى البعد الاخلاقي في التعامل معها، بحسب ما جاءت به توراة موسى عليه السلام، فإن القرآن الكريم تكفل ببيان وإظهار حقيقة خلقة المرأة وتساويها مع الرجل، مع فرض بعداً أخلاقياً يجللها بالوقار والإحترام، ليكون إمتداداً، يُبرز ما كان قد خفي من أصل التوراة أو الإنجيل. وذلك بإعتبار وحدة وترابط الدين في الأمور التكوينية والأخلاقية.

وقد زادت الميثولوجيا الأثينية أيضاً في مسألة خلق

المرأة والشرور التي ولدت معها، مما دعم كتبة التوراة بهذا الموضوع الذي ارتأوا صياغته في توراتهم، ففي كيفية خلق الآلهة للإنسان، يروي (هزيود) في (الأعمال والأيام) (أبيات 54- 105) وأنساب الآلهة (512- 616) أن بروميثيوس Prometheus، (والكلمة تعني حرفياً المتبصر أو المتروي) هو الذي خلق الرجل (خلق رجالاً كثيرين وجلس على أكمة عالية يشرف على عبادة الصالحين .. ثم فكر في نعمة يسبغها عليهم .. فسرق النار المقدسة في غفلة . من (زيوس) فغضب كبير الآلهة وعاقبه بتكبيله بالأغلال ... الخ.

أما الرجال فكان لابد من عقابهم أيضاً، فخلق لهم الأنثى وأعطتها أفروديت بعضاً من جمالها، وعلّمتها أثينا أعمال المنزل وغزل الصوف، وهذه المرأة الأولى هي (بندورا Pandora) (والكلمة تعني حرفياً العطايا أو الهبات الشاملة) وتروي الأسطورة أن (هرمز) رسول الآلهة حملها إلى بروميثيوس، لكنه رفضها لأنه (متبصر) وتزوجها شقيقه

(إبيمتوس Epimetheus) (أي المتهور أو العجول). وهكذا نجد أن (هزيود) يجعل من الإله المتروي -برومثوس - خالقاً للرجل، وهيفاستوس الأعرج الشائه خالقاً للمرأة.(*)

ويذهب هزيود أيضاً إلى أن الرجل كان يعيش في جنّة دانية القطوف لا يعمل ولا تصيبه أمراض، وهذا هو العصر الذهبي الذي يشبه الأيام التي قضاها آدم في الجنّة قبل أن يعرف حواء. وبعد سرقة النار خلق (زيوس) الفصول الأربعة، فلم يعد الزمان ربيعاً دائماً، كما كان فأنتقل الرجل إلى العصر الفضي، لكن بمجيء المرأة (بندورا) إلى الأرض بدأ العصر النحاسي بسبب تلك الأشباح التي جلبتها معها،

(*) الأسطورة تكشف على مدى الكراهية المتأصلة في التراث اليوناني للمرأة، فخالقها هو إله شأنه، جاء إلى الدنيا بقدمين معكوستين، أصابعهما في الخلف، وعقبهما إلى الأمام، وأنجبته (هيرا) وهي في حالة غضب من (زيوس) ووضعته قبل ميعاد ولادته.

المرض والعلل وآفات الفقر التي انطلقت من الصندوق[1]. فملأت الأرض بمختلف أنواع الشدائد، ثم كثرت المصائب، فانتقل إلى العصر الحديدي حيث تغلغلت الخطيئة في نفوس الناس يتكالبون على الأرزاق ويقتل بعضهم بعضاً. ويلخص هزيود رأيه في المرأة بقوله: (إن جنس النساء اللطيف جاء من بندورا هذا الجنس الخبيث الذي هو شر مستطير يتلبس الرجال، فالمرأة ليست رفيقة حياة تشارك زوجها الفقر والألم، وإنما بالطعام والثياب، ولا يقف نهمها عند حد، هكذا خلق زيوس المرأة مصدر شر وفساد.[2]

عموماً فإنهم بالتالي عملوا على تعميق شعور المرأة اليهودية بدونيتها، وبأنها هي المسبب في عقوبة آدم مما

---

(١) هو الصندوق الذي أرسله زيوس هدية إلى بندورا بمناسبة زواجها، وكان يحوي جميع المصائب والشرور.

(٢) افلاطون والمرأة: د. إمام عبد الفتاح إمام، نشر مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٦م: ص٢٧ وما بعدها.

أوجدوا عندها هاجساً بالذنب والخوف، ويدعم ذلك ما رافق المرأة من تشريعات قاسية جداً أيام حيضها وما تضيفه لها من نحاسة وشؤم، فقد جاء في العهد القديم:

(وإذا حاضت المرأة فسبعة أيام تكون في طمثها، وكل من يلمسها يكون نجساً إلى المساء. كل ما تنام عليه في أثناء حيضها أو تجلس عليه يكون نجساً، وكلّ من يلمس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى المساء. وكلّ من مسّ متاعاً تجلس عليه، يغسل ثيابه ويستحم بماء، ويكون نجساً إلى المساء.

وكل من يلمس شيئاً كان موجوداً على الفراش أو على المتاع الذي تجلس عليه يكون نجساً إلى المساء. وإن عاشرها رجل وأصابه شيء من طمثها، يكون نجساً سبعة أيام. وكل فراش ينام عليه يصبح نجساً.

إذا نزف دم امرأة فترة طويلة في غير أوان طمثها، أو إستمر الحيض بعد موعده، تكون كل أيام نزفها نجسة كما في

أثناء طمثها. كل ما تنام عليه في أثناء نزفها يكون نجسـاً كفراش طمثها، وكل ما تجلس عليه من متاع يكون نجسـاً كنجاسة طمثها. وأي شخص يلمسهن يكون نجسـاً، فيغسل ثيابه ويستحم بماء، ويكون نجسـاً إلى المساء. وإذا برئت من نزفها فلتمكث سبعة أيام ثم تطهر، وفي اليوم الثامن تجيء بيمامتين أو فرخي حمام إلى الكاهن إلى مدخل خيمة الاجتماع، فيقدم الكاهن أحدهما ذبيحة خطيئة، والآخر محرقة. ويكفر الكاهن عنها في حضرة الربّ من نزف نجاستها.) سفر اللاويين، الإصحاح١٥: ١٩- ٣٣.

وجاء في التلمود: ((الحمد لك يا رب يا ملك الدنيا، يا من لم تخلقني أنثى))

((وا حسرتاه لمن كانت ذريته إناثا))

((أصلح النساء مشعوذات))

((النساء ارواحهن تافهة))

((النساء لسن حكيمات ولا يعتمد عليهن))

((نزلت الى العالم عشرة أنصبة من الثرثرة أخذت النساء منها تسعـًا))

((لا توجد إلّا للجمال، لا توجد إمرأة إلّا لإنجاب الأولاد))

((كل من يمشي وراء مشورة امرأة يسقط في جهنم))

كل هذا سيجعل المرأة تعمل كل شيء من أجل إرضاء الرجل، عسى أن تمحي جزءاً مما راود الفكر عند الرجال حولهن وحول خلقهن، وما تسببن فيه من طرد لآدم من الجنة.

رؤية جديدة لفهم أسباب استغلال اليهود للنساء

الآن سنقدم فهمـاً جديداً نستطيع من خلاله أن نعلل ظاهرة استغلال نساء اليهود بأبشع وأخس التصرفات، التي منها تقديم أجسادهن وجمالهن كعنصر رئيس في عملية جذب الآخرين، ومن ثم الوصول الى أهدافهم التي يمكنهم من خلالها البقاء والتسيد، وذلك بدعم دينهم وما تبنوه بكل وسيلة تفيد هذا الغرض.

كل ذلك ليكون كفارة أو تعويضـاً عمّا بدر من أمهن حواء، وما تسببت به من آلام وأتعاب لآدم، بعد أن أطاعها في أمر هو منهي عنه من قبل الربّ الإله.

ويمكن ملاحظة ذلك من خلال استخدامهم في رواية التوراة لعدّة شخصيات ورموز من النساء، من أجل تعزيز هـذا الغـرض الـذي ملأ كل حيز تفكيـرهم، الـذي ظل يشاطر وجـودهم بين الأقـوام التـي عاشـوا معها نتيجة حلّهم

وترحالهم، فكان استخدام سلاح النساء هو البديل الذي يمكن الوصول من خلاله الى غاياتهم وأهوائهم، مع قدرة إيجاد الأعذار والمبررات التي يطرحوها لجعل ما تقدم به نساؤهم ورضى رجالهم به أمراً مستساغاً، لا غرابة ولا دهشة حوله.

ولذلك سمحوا لأنفسهم بأن يتعرضوا لأعلى الشخصيات والرموز الإنسانية كإبراهيم ولوط وسليمان وداود عليهم السلام ليجعلوا منهم شركاء في هذا المنهج اللاأخلاقي ليبرروا كل الأفعال الدونية التي تظهر منهم، بإعتبار ان أكابر أنبيائهم قد أدّوا هذا الدور من قبلهم.

العرض النسائي في الرواية التوراتية

يمكن لنا أن نعرض الآن بعض السبل التي عرضتها الرواية التوراتية في هذا الشأن:

الأولى: عرض سارة زوج إبراهيم عليه السلام لفرعون مصر على اعتبار أنها اخته.

الثانية: استخدام أستير لحماية اليهود في بلاد فارس.

عرض سارة زوجة إبراهيم عليه السلام لفرعون

جاء في رواية التوراة في سفر التكوين: (ولما اقترب أبرام من مصر استرعى جمال ساراي أنظار المصريين، وشاهدها أيضًا رؤساء فرعون فأشادوا أمامه. فأُخذت المرأة إلى بيت فرعون. فأحسن إلى أبرام بسببها وأجزل له العطاء من الغنم والبقر والحمير والعبيد والإماء والأُتُن والجمال. ولكنّ الربّ ابتلى فرعون وأهله ببلايا عظيمة بسبب ساراي زوجة أبرام. فاستدعى فرعون أبرام وسأله: «ماذا فعلت بي؟ لماذا

لم تخبرني أنها زوجتك؟ ولماذا ادّعيت أنّها أختك حتى أخذتُها لتكون زوجة لي؟ والآن ها هي زوجتك، خذها وامض في طريقك) سفر التكوين، الاصحاح١٢: ١٤- ١٩.

وفي هذا الصدد يقول الدكتور علي عبد الله الجباوي: والشيء الأكثر غرابة والأبعد تقبلاً للعقل يكمن بما يلي:

هل دخول أبرام وزوجته سارة وماشيتهما الى أرض مصر نتيجة جدب في الأرض التي أنتقل منها، كان من الأهمية آنذاك كي تصل أخباره الى كبير القوم فرعون؟ إن هذا لا يكون صحيحاً، إلّا إذا كان أبرام قد دخل مصر غازياً على رأس جيش يريد إنتهاك حرمة الأراضي التابعة لفرعون، وأن هذا الأمر لم تحدثنا عنه الكتابات المصرية التي لم تترك شيئاً إلّا وذكرته على جدران القبور والمعابد.[1]

ومن أهم الحقائق التي تؤكد زيف وإختلاف ما جاء بحق

---

(١) المرأة في أسفار التوراة: د. علي عبد الله الجباوي، نشر دار التكوين، دمشق، ط١، ٢٠٠٩م: ص١٨

أبرام وزوجته ساراي مع فرعون مصر هو موقف المصريين القدماء القائم على الإحتقار والدونية للنمط المعيشي الرَعَوي ولأتباعه، وقد بلغ الإحتقار بهم، حد نعتهم لرعاة الماشية بالنجاسة والدنس، وهذا مما يجعل الفرد المصري، آنذاك يأنف الجلوس الى مائدة الطعام مع أناس يعيشون على الماشية من أمثال أبرام وزوجته ساراي لكونهما رعاة ماشية.[١]

ومّا يؤكد هذا الأمر هو ما جاء في سفر التكوين: (وخاطب يوسف إخوته وبيت أبيه: أنا ماض الآن إلى فرعون لأخبره أن إخوتي وبيت أبي المقيمين في أرض كنعان قد قدموا إليّ. رعاة غنم، وحرفتهم رعاية المواشي، لذلك أحضروا معهم غنمهم وكلّ مالهم. فإذا دعاكم وسألكم ما حرفتكم؟ قولوا: حرفتنا رعاية المواشي منذ صبانا إلى الآن، كذلك نحن وهكذا آباؤنا جميعاً. لكي تقيموا في أرض جاسان؛ لأن كل راعي غنم نجس لدى المصريين) سفر

---

(١) المصدر نفسه: ص٢١.

التكوين٤٦: ٣١- ٣٤.

والحقيقة لو توقفنا وتأملنا قليلاً، فإننا لا يمكن أن نحصر سبب قدوم إبراهيم عليه السلام الى مصر بهذين السببين اللذين ذكرهما الدكتور وهما:

١- سبب جدب الأرض التي أنتقل منها الى مصر.

٢- إنّ إبراهيم عليه السلام قد دخل مصر غازياً.

فكلا الأمرين قد يكونا غير متحققين عند إبراهيم عليه السلام حتى يدخل مصر. وإنما قد يكون الأمر متعلقاً بالهداية والدعوة الى التوحيد، وهو الأقرب للواقع الفكري والحركي لإبراهيم عليه السلام، وكان هذا الأمر يشّده الى إيصال كلمة الحق ببعدها الرسالي الى كل مراكز المعمورة، وخصوصاً التي تمثل البؤر الحضارية الرئيسية مثل مصر في تلك الحقبة السحيقة من الزمن، والذي يساعد أيضاً للقيام بتلك الرحلة هو رفض قومه لدعوته وعدم الإستجابة له،

حتى أقدموا على قتله حرقاً بالنار، بحيث أعدوا لذلك محرقة كبرى نادراً ما يشهد بمثلها التاريخ، ولكن الله أنجاه بأعجوبة وخلّصه من أيدي الظالمين، إذ قال تعالى: (قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ) سورة الأنبياء: ٦٨ – ٦٩، وحينئذ يكون المسّوغ للرحيل من بلاده متوجهاً الى بلاد أخرى هو المتعين، مضافاً الى أمر الإستمرار بنشر رسالة التوحيد يبقى سارياً للإنتقال والوصول الى البلدان الأخرى.[1]

فإذا كان الأمر كذلك فسوف يبطل ما ادّعاه كاتب التوراة فيما يخص ابراهيم وزوجته سارة لعدّة أسباب نذكر منها:

١ – انّ نفس التوراة تقول بأن إبراهيم عليه السلام عندما رحل

---

(١) وهنا لا ينتقل ذهن القارئ الكريم بأن إبراهيم عليه السلام قد رحل في بادئ الأمر من أور الى أرض كنعان ولم يتوجه مباشرة الى أرض مصر، كما تنقل ذلك التوراة (أنظر سفر التكوين الإصحاح١٢: ٥ – ٦) فالأمر سيّان فيما اعطيناه من أسباب.

من أور، بأمر الربّ كان عمره في الخامسة والسبعين: (فأرتحل أبرام كما أمره الربّ، ورافقه لوط. وكان أبرام في الخامسة والسبعين من عمره عندما غادر حاران) سفر التكوين١٢: ٤، وهذا العمر يدلنا على أن زوجته سارة لم تكن شابة وإنّما كانت عجوزاً، فأي جمال هذا الذي يتكلم عنه كاتب التوراة حتى يبدو منها لتسحر عيون المصريين وخصوصاً الفرعون منهم؟! وما يؤيد هذا الكلام هو ما جاء في القرآن الكريم: (قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ) سورة هود: ٧٢.

٢- الذي أقدم على الموت من أجل رسالته وقضيته، عندما حاولوا حرقه، والذي واجه عتاة قومه بشجاعة فائقة، بعد أن كسّر أصنامهم، إذ قال تعالى: (فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ * قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي

الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ * وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ) سورة الصافات: ٨٨ – ٩٩.
وكذلك حوارياته مع النمرود: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) سورة البقرة: ٢٥٨. فهذه كلها تدل على صلابة في المبدأ والعقيدة، والإقتناع التام بأحقية ما بعث من أجله، وإن رسالته تستحق أن يضحي من أجلها بنفسه وبكل ما يملك. فكيف يقدم على أمر لا يقوم به أي فرد عادي، يمتلك قليلاً من الغيرة والشرف ليقدّم زوجته جسداً ينتهب من قبل اعدائه لأجل الحفاظ على حياته؟!.

وقد كرر كاتب التوراة نفس الموقف لإبراهيم عليه السلام مع الملك العربي (أبي مالك) ملك (جرار) إذ قدّم إبراهيم زوجته ساراي الى الملك على أنها أخته لينال بها

خيراً، إذ جاء في رواية التوراة: (وارتحل إبراهيم من هناك إلى أرض النقب، وأقام بين قادش وشور، وتغرّب في جَرار. وهناك قال إبراهيم عن سارة زوجته: (هي أختي). فأرسل أبيمالك ملك جَرار وأحضر سارة إليه. ولكن الله تجلى لأبيمالك في حلم في الليل وقال له: إنك ستموت بسبب المرأة التي أخذتها، فإنها متزوجة. ولم يكن أبيمالك قد مسّها بعد، فقال للربّ: أتميت أمّة بريئة؟ ألم يقل لي إنها أختي وهي نفسها أدّعت أنه أخوها) سفر التكوين الإصحاح ٢٠: ١ - ٥.

ثم يتكرر هذا الفعل من قبل اسحاق بن إبراهيم مع نفس الملك أبي مالك، حيث يقدم زوجته رفقة إبنة ناحور أخي إبرام على أنها أخته خوفاً من القتل. حيث جاء في سفر التكوين: (وعندما سأله أهل المدينة عن زوجته قال: هي (أختي) لأنه خاف أن يقول: هي زوجتي لئلا يقتله أهل المدينة من أجل رفقة، لأنها كانت رائعة الجمال، وحدث بعد أن طال مكوثه هناك، أن أبيمالك ملك الفلسطينيين أطلّ من

النافذة، فشاهد إسحاق يداعب امرأته رفقة. فاستدعاه إليه وقال: إنها بالحقيقة زوجتك، فكيف قلت هي أختي؟ فأجاب إسحاق: لأني قلت: لعلي أُقتل بسببها. فقال أبي مالك: ما هذا الذي فعلت بنا؟ لقد كان يسيراً على أي واحد من الشعب أن يضطجع مع زوجتك فتجلب بذلك علينا إثمـًا).سفر التكوين٢٦: ٧- ١٠.

إنّ كاتب التوراة كان يهدف من خلال هذا التصوير أموراً كثيرة تستفاد من نفس السياق الدرامي للقصة، ومنها:

الأول:

إنّ المرأة كمخلوق هي حتى عند أكابر الأنبياء والمرسلين يبقى وجودها متدني ويمكن استخدامها كواسطة لتنفيذ المخططات أو الأهداف الإلهية، كما يدّعون والتي هي في الواقع لا تمثل إلّا طموحاتهم الشخصية وتطلعاتهم المستقبلية.

وحينئذ فإن الشخصية اليهودية ستعيش، أو قل ستقبل

حالة التطبع لمثل هكذا أمور، بل وزيادة بإعتبار أن أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام قد فتح لهم باباً لمثل هكذا أفعال على مصراعيه، وعليهم أن يستفادوا من أمثال تلك الخطوات التي يثيرها الكهنة والأحبار على أساس أنها من صلب الشريعة، بل هي من دعائم انتشار الديانة اليهودية. وذلك بإعتبارين؛ الأول منهما هو التعويض وسد ذلك النقص الذي تمثل في الخلق من ضلع آدم لتكون خادمة له ويستخدمها كيف يشاء، وعلى أساس عودة الجزء الى الكل، والثاني هو ذلك التصرف الخاطئ من قبل حواء، وامتثالها لطلب الحيّة في الأكل من تلك الشجرة، ومن ثم توريط آدم وإيقاعه بنفس الخطأ الذي وقعت به مما تسبب بالتالي الى إنزال عقوبة الطرد من الجنة لينزلا في أرض الشقاء والبلاء.

الثاني:

نلاحظ أن سارة لم تبدي أية ممانعة لما طلب منها إبراهيم عليه السلام ذلك الطلب، بل امتثلت أمره، وهي التي

أكدت قول إبراهيم أمام أبي مالك حينما قال: (وهي نفسها ادّعت أنه أخوها). وهنا يريد الكاتب أن يعطي صورة بأن سارة كانت على أتم الإستعداد لأن تكون إمرأة فرعون وملك جَرار. وبدت وكأنها قدْ امتثلت لتنفيذ أمراً إلهيـاً، وسوف تنال من خلاله تمام الرضا الإلهي، حتى ولو كان بتلك الطريقة اللاأخلاقية. وكاد هذا الأمر أن يتم، كما خطط له، لولا تدخل الربّ ومنع حدوث تلك الجريمة.

وبذلك فإن كاتب التوراة أراد أن يوصل عدّة رسائل من ذكر هذه القصة منها: انه على كل فرد من اليهود مهما كان مركزه الديني أو الإجتماعي عاليـاً، فعليه أن يدع في خلجات نفسه إنه متى ما وضع في موضع تكون فيه الديانة اليهودية مهددة، أو قد يكون هناك خطراً على شخصية مهمة من الشخصيات اليهودية، فهنا عليهم أن يبادروا بإنقاذه، حتى لو استدعى أن يقدّموا نساءهم، لإغواء جهة الخطر أو تفتيت قواها. وعلى كل فرد يهودي أن لا يعارض هذا العمل، مادام بالتالي يصب في خدمة الديانة اليهودية. والرسالة الأخرى؛

أن تكون المرأة اليهودية على أتم الإستعداد لأداء مثل هذه الأدوار لتكون لها كفارة، أو تعويضاً للنقص الذاتي الموجود فيها.

الثالث:

شعر كتّاب التوراة واقعاً بأهمية المرأة، ولا يمكن أن يتغاضوا عن هذه الأهمية، فهنا إحتاجوا للوصول الى الكيفية التي يمكن من خلالها استغلال هذه الأهمية والقوّة التي تمتلكها المرأة من خلال انوثتها في التأثير على الآخرين، ولكي لا تصبح هذه القوّة عصية عليهم وغير منقادة لرغباتهم، عَمدوا الى التقليل من أهمية المرأة عن طريق الدين واللاهوت، معتمدين على قضايا ميثولوجية تسند ما ذهبوا إليه. وكان أول البوادر لذلك هو إختلاقهم لقضية خلق المرأة من ضلع آدم، فكان نقصاً تكوينياً لها، ثم عمدوا الى أيجاد نقص عملي آخر وهو تسبيبها في هبوط آدم من الجنة. ولن يستطيعوا بغير طريق الدين والشريعة من زرع بوادر

الدونية والشعور بالنقص الذاتي للمرأة. حتى أن لشدّة تثبيت هذا المعتقد والتمسك به، أخذ دوره الواضح عند النصارى، وكذلك تأثر به بعض الرواة المسلمين، فأخذ كمعتقد لهم في كيفية خلق حواء.

وعندما صدّقت المرأة اليهودية ما قيل عنها في كيفية خلقها، وكذلك تسببها في غواية آدم وهبوطه من الجنّة، نتيجة ما طرحته لها الشريعة، وبقلم ولسان طقسي، سعت الى إرضاء رجال الدين لما أرادوه منها وبشكل تصاعدي، وبأتساع اكبر وتأثير اقوى.

إستخدام (أستير) الجميلة لحماية اليهود في بلاد فارس

يتضح لنا مما سبق أن التعاليم اليهودية لا تقف حجر عثرة عند من يؤمن بها في امتهان الدعارة والعهر عن طريق النساء اليهوديات اللواتي يقدمن أنفسهن واجسادهن في سبيل تحقيق غاية معينة، وصولاً الى هدف قد حدّد لهن. فنلاحظ في سِفر (أستير) كيف يبدي كاتب التوراة تأثير جمال المرأة وأنوثتها على الملك الفارسي (أحشويروش) بحيث يشكل محوراً اساسياً في عملية انقاذ الشعب اليهودي، وبالتالي ليعطي صورة عن مدى أهمية المرأة وجمالها في إغواء اصحاب القرار، وإيداع الشعب اليهودي في منطقة الأمان وخلاصه من العذاب والضغوط الإجتماعية بسبب الأسر أو غيره. فقد أظهر كاتب التوراة بأن هناك ظلماً قد وقع على اليهود، حتى اصدر الملك (أحشويروش) مرسوماً ملكياً بإبادتهم، بحيث صرف نحو ثلاث مئة ألف كيلوغرام من الفضة من أجل تنفيذ هذا المرسوم، الى غيرها من المظالم

التي كان يعيشها اليهود في ظل الأسر الفارسي، وفيما سبق الأسر البابلي على عهد نبوخذ نصر. هذا ما يقوله كاتب التوراة، ولكن الحقيقة تبدو خلاف ذلك، فتبدأ قصة (أستير) في عام ٤٨٣ ق. م بعد مرور مائة سنة وثلاث سنوات على سبي نبوخذ نصر لليهود، وبعد قيادة (زربابل) سمح لأول مجموعة من المسبيين في العودة الى أورشليم حيث تخبرنا التوراة في سفر عزرا: ١ : ٢ (بعد انقضاء سبعين عاماً في المنفى، سمح للمسبيين من يهوذا بالرجوع الى وطنهم، وقام بهذه الرحلة ما يقرب من خمسين ألف شخص. وعند وصولهم شرعوا في إعادة بناء الهيكل) ولكن فضّل كثير من اليهود البقاء في فارس، عن العودة الى وطنهم، وكانت السجلات الفارسية تدل على أن كثير من اليهود في فارس اقتنوا الثروات الضخمة، فكانت العودة الى أورشليم تعني التخلي عن كل ما يمتلكون والبدء من جديد. ولم يستطع الكثير إقناع انفسهم بعمل ذلك، اذ فضلّوا الثروة والأمن

والحرية على التضحية التي يستلزمها عمل الله.[1]

عاشت (أستير) في مملكة فارس التي استولت على بابل عام ٥٣٩ ق. م. ولابد أن والدي أستير كانا من بين المسبيين الذين لم يرغبوا في العودة الى أورشليم، رغم أن الملك كورش كان قد أصدر مرسوماً يسمح لهم بذلك.

ولذلك فان مسألة استخدام أستير للوصول الى الملك، والتأثير عليه من أجل رفع الظلم عنهم. مسألة غير مقبولة وغير مقنعة، إلّا اللهم كان عمل (مردخاي) المخطط له بعمق من أجل ان يوصل أستير الى الملك مستخدماً جمالها وأنوثتها مستغلاً يتمها، ليصل الى أهداف وأطماع لم يذكرها كاتب التوراة، لأنها قد تكون اهدافاً دنيئة او عنصرية. ثم إنه لو فرضنا أنه كان هناك ظلماً وحيفاً قد وقع على اليهود المسبيين في فارس. أما كان الأجدر بهم، إن لم يتمكنوا من

---

(١) ينظر التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، عند شرح الفقرة (٦:١) في سِفر عزرا.

الثورة والمقاومة، بأن يرحلوا من بلاد فارس، ويعودوا الى أورشليم، مقر سكناهم كما يدّعون فارين بسلامتهم وحريتهم، مضافاً الى تحقيق حلمهم بالعودة الى القدس؟!.

إذن فلماذا هذا اللف والدوران، إن لم يكن كاتب التوراة لا زال يخطط ويخطط لجعل المرأة في أحط المواقف وعليها ان تقبل كل الظروف من أجل تحقيق أحلامهم وأفكارهم الخبيثة، ولننظر كيف يصور لنا المرأة في هذا السِفر ويصرّ على إحتقارها وإمتهانها. لينقل لنا مشهداً دراميا بعيداً عن الذوق والأخلاق من أجل تمرير ذلك البعد الصوري الدوني للمرأة:

(وفي اليوم السابع عندما دارت الخمر برأس الملك، أمر خصيانه السبعة مهومان وبزثا وحربونا وبغثا وأبغثا وزيثار وكركس الذين كانوا يخدمون في حضرته، أن يأتوا بالملكة (وشتي) لتمثل في حضرته، وعلى رأسها تاج الملك، ليرى الحاضرون من الشعب والعظماء جمالها، لأنها كانت رائعة الفتنة. فأبت الملكة أن تطيع أمرَ الملك الذي نقله إليها

الخصيان. فاستشاط الملك غيظاً واشتعل غضبه في داخله. وكانت عادة الملك أن يستشير الحكماء العارفين بالأزمنة والشرائع والقوانين، فسأل كرشنا وشيثار وأدماثا وترشيش ومَرَس ومرسنا ومموكان، وهم سبعة حكماء مقربون إليه من رؤساء مادي وفارس، ممن يمثلون دائماً أمام الملك، ويحتلون المراتب الأولى في المملكة: أي شيء تعاقب به الملكة، حسب نص القانون، لأنها لم تصدع لأمر الملك الذي نقله إليها الخصيان؟ فأجابه مموكان في حضرة العظماء: إن الملكة وشتي لم تذنب في حق الملك وحده، بل أساءت إلى جميع الرؤساء والأمم المقيمين في تخوم الملك أحشويروش، فما أن يذيع خبر تصرّف الملكة بين جميع النساء، حتى يحتقرن أزواجهن، إذ يقلن: إنّ الملك أحشويروش أمر أن تمثل الملكة وشتي أمامه ولكنها لم تصدع بأمره. فتحذو في هذا اليوم سيدات فارس ومادي، اللواتي بلغهن خبر الملكة، حذوها، مع جميع رؤساء الملك. ومثل هذا يثير كثرة من الإحتقار والغضب. فإذا راق للملك

فليصدر أمراً ملكياً، يسجل ضمن مراسيم مادي وفارس التي لا تتغير، يحظر فيه على وشتي المثول في حضرة الملك أحشويروش. ولينعم الملك بملكها على من هي خير منها. وهكذا يذيع أمر الملك الصادر عنه في كل أرجاء مملكته الشاسعة، فتعامل جميع النساء أزواجهن صغاراً وكباراً بإحترام. فاستصوب الملك وعظماؤه هذا الرأي، وعمل بمشورة مموكان، فبعث رسائل إلى كل أرجاء المملكة، مكتوبة بلغة أقاليمها وبلهجة شعوبها، يأمر فيها أن يكون كل رجل السيد المطاع في بيته، وأوصى أن يذاع هذا الأمر حسب لغة كل شعب) سِفر أستير١: ١٠- ٢٢.

ثم ينقل لنا كاتب التوراة مشهداً آخر حول مسابقة ملكة جمال فارس:

وبعد حين سكن غضب الملك أحشويروش وتذكر وشتي وما فعلت وما حكم به عليها، فقال له ندماؤه المقربون إليه: ليأمر الملك فيختار له فتيات عذارى حسان المنظر، وليقم وكلاء في جميع أقاليم مملكته ليجمعوا الفتيات

الحسان المنظر إلى دار النساء في شوشن العاصمة، تحت سلطة هيجاي خصيّ الملك وحارس النساء، وليعطهن لوازم الزينة، والفتاة التي تعجب الملك يستبدلها بوشتي. فأستحسن الملك هذه المشورة وعمل بها. وكان في شوشن العاصمة رجل يهودي اسمه مردخاي بن يائير بن شمعي بن قيش من عشيرة بنيامين. وكان في جملة المسبيين من أورشليم بمعية يكنيا ملك يهوذا الذي سباه نبوخذ نصر ملك بابل؛ وكان مربياً لهدَّسه التي هي أستير ابنة عمّه، لأنها فقدت أباها وأمها، وكانت رائعة الجمال، مات أبوها وأمها فتبناها مُرْدخاي. فلما أذيع أمر الملك وجمعت فتيات كثيرات إلى شوشن العاصمة تحت سلطة هيجاي حارس النساء، إختار هيجاي أستير وأدخلها بيت الملك فأعجبت الفتاة الملك وحظيت برضاه، فعجّل بإعطائها ما يلزمها من الزينة ووجبات الطعام، وخصّها بسبع فتيات اختارهن من بيت الملك ونقلها معهن إلى أحسن محلّ في دار النساء. وعملاً بوصية مُردخاي لم تخبر أستير شعبها وأقاربها بالأمر.

وكان مردخاي يتمشى كل يوم أمام دار النساء ليستعلم عن سلامة أستير وما يحدث لها. وكانت كل فتاة تدخل في الوقت المعين لها على الملك أحشويروش، وذلك بعد أن تقضي أثني عشر شهراً في دار النساء بحسب التقليد المتبع، فتتعطر ستة أشهر بزيت المرّ وستة أشهر بأطياب وأدهان خاصة بالنساء، وحين كانت تذهب من دار النساء إلى دار الملك يعطى لها كل ما تطلب. كانت تذهب في المساء وترجع في الصباح إلى دار النساء الثانية بعهد شعشغار، خصيّ الملك وحارس جواريه، ثم لا تعود تدخل على الملك إلّا بإرادة الملك فتدعى بإسمها.

فلما جاء وقت دخول أستير على الملك لم تطلب شيئًا إلا ما قاله هيجاي خصيّ الملك وحارس النساء، لأنها كانت تنال إعجاب كل من رآها. فأخذت أستير إلى الملك أحشويروش في دار ملكه، في الشهر العاشر الذي هو شهر طيبيت، في السنة السابعة من ملكه. فأحبّ الملك أستير على جميع النساء وحظيت برضاه وعطفه أكثر من جميع

العذارى، فوضع التاج الملك على رأسها وجعلها ملكة مكان وشتي) سفر أستير٢: ١١ - ١٧.

انظر هنا الى كاتب التوراة كيف يجعل من طرد أحشويروش لزوجته وشتي مشكلة كبيرة يقلق الملك بها، ولا يهدأ له بال، وكأن أمر المملكة اصبح متعلقاً بإيجاد بديلاً لوشتي ليس إلّا. وهنا ينتقل خيال كاتب التوراة الى مساحة من دراما الجسد للإيقاع ببعده الأنثوي الخلّاب، وجمال الوجه الأخّاذ، بقلب الملك، وحل عقده النفسية تلك، التي سببها فراق وشتي الجميلة، وهو لا زال ينتقل بنفس المفردة، ليسبك من وقع قصته التي أوردها في سِفره. فهو بعد أن يجعل من جمال وشتي ركناً يشارك الملك في مملكته، يضع له بديلاً بعد حين، بنفس البعد الإغرائي والمقياس الجمالي الأنثوي، ليوحي به للآخرين بأنه ركن أساسي لا يمكن التخلي عنه في اي زمان ومكان.

ثم ينتقل الى مشهد فيه الإثارة تكون أكثر، وإبراز المرأة

في مشهد أكثر إيحائية على أنها خالية من الفعالية والتأثير، إن لم تكن صاحبة جمال ومفاتن انثوية كاملة.

فعمل على إيجاد شخصاً مقرباً للملك يشير عليه بجمع النساء الحسان في بلاد فارس، ثم يجري لهن مسابقة لاختيار أجملهن وأكثرهن حُسْنًا ليختارها ويأنس بها لتكون له محظية او زوجة، وكأن الأمر لا يتم للملك بإختيار المرأة المناسبة له، إلّا من خلال هذا التصرف.

ثم يأتي المؤرخ اليهودي (يوسيفوس) ليؤكد هذا الأمر ويضفي عليه صفة من الواقعية لزيادة إقناع من يطلع على هذا السفر فيقول: أن أربع مئة فتاة شاركن في هذه المنافسة الرائعة الى حد بعيد. اذ اتيحت لهنّ سنة كاملة فيها يصقلن كل فن من فنون الإغراء، ويعززن جمالهن بتبديل أجسامهن، ويستعملن كل وسيلة من وسائل التجميل والتزيين. وكان مقصوداً في الأخير أن تتجلى لديهن الأناقة والفتنة وجمال

الجسد والإغراء المثير، ثم تقضي كل منهن ليلة مع الملك.»[1]

ويأتي كاتب آخر اسمه سي أف كايل، وضمن تفاسير كايل وديليتش، ليعضد آراء من سبقه في الكتابة لتأصيل هذا الإتجاه فيقول: (إن هذه الكلمات-اي ما جاء في التوراة في مسألة إختيار أجمل امرأة - تعني (الفرك والصقل، وتدل على التنظيف والتزيين بكل نوع من الأدهان والمراهم الثمينة، وبعبارة أخرى فان القيّمين قضوا سنة واحدة وهم يعدّون هؤلاء النساء، صاقلين منظرهن الخارجي لتعزيز جمالهن الجسماني، امر مثير للإهتمام. أليس كذلك؟ ففي مدّة من الزمان قصيرة نسبيًا يمكن تعزيز جمال الإنسان الخارجي.»[2]

فإذا كان الأمر في التعامل مع المرأة يتم بهذا الشكل

---

(١) أستير: تشارلز. سو يندل، ترجمة سعيد باز، نشر دار منهل الحياة، بيروت، ط١، ٢٠١٤: ص٦٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٦١.

لإظهار أهميتها من خلال جمال وشدّة انوثتها، بحيث تظهر بالتالي كعلامات قد اعدّت مسبقاً لها من أجل تعويض نقصها الخلقي من ذلك الضلع، ومعصيتها التي تسببت في هبوط آدم من الجنّة، لتتحمل بالتالي قبول أرذل وأخس المواقف الأخلاقية، من أجل تحقيق هدف لليهود قد يكون سبباً لتنال به الغفران المقدس، الذي تتمكن به من إزالة أي دنس خلقي أو معنوي.

هذا من جهة، وإذا ما رجعنا الى مراجعة ذلك النصّ من سِفر أستير الذي يبين حالة (وشتي) وكيف أنها تحملت طرد الملك لها وافتراقه عنها، بسبب رفضها لذلك الطلب من قبل أحشويروش لكي تخرج عن الناس عارضة جمالها ومحاسنها لهم، بالرغم من أن تلك لم تكن عادة المجتمع الفارسي، لكن كاتب هذا السِفر، لكي يجعل روايته متقنة ويفعّل السبب الذي من أجله أمر الملك من جلب جميلات فارس وإجراء مسابقة لإختيار أجملهن وأكملهن أنوثة، إختار ذلك المشهد ليبدو مقنعاً للقارئ والمتلقي، وليبقى بالتالي

في نفس السياق الذي يريد أن يعطي من خلاله المبرر للمرأة بالتنازل عن شرفها وكرامتها، متى ما استدعت الظروف الى ذلك، من أجل أن تحافظ على أسرتها أو مجتمعها أو أبناء دينها.

ولعل هذه المبادرة تعتبر الأولى التي شجعت الى التحرك وإيجاد مسابقة ملكة جمال العالم أو ملكة جمال الكون أو ملكة الحسن الفائق وغيرها من أمثال هذه المسابقات التي تقام في عصرنا الحالي، والتي هي واقعاً تسخر من قضية وجود المرأة الرسالي لتحوله الى وجود لإستعراض المفاتن والإغواء الذي يستتبع ذلك الكثير من الفساد والتفسخ.

عموماً وكذلك من الرسائل المهمة التي أراد كاتب التوراة أن يوصلها للآخرين، بأن اليهود لا يمكن إقصاؤهم عن المراكز العليا، مهما كانت العوائق والأسباب، فهم شعب الله المختار، ولابد أن يكون لهم صوتاً حاضراً وتأثيراً

على القرارات العليا، حتى وان خفيت عناوينهم، فها هي أستير كانت من السبي اليهودي، وجيء بها الى بلد أجنبي، وهي فوق ذلك يتيمة، ولم يكن لها مدخلية أو أية علاقة مع أشراف الفرس، ولكن بمجرد ان تدخل (مردخاي)- الذي يمثل الوجه الديني لليهود، كما يريد أن يقدمه كاتب التوراة، الذي يعرف كيف يحرك المفردات والتلاعب بها -تمكن من استغلال أستير، واضعاً جمالها وسرّ أنوثتها المفتاح الذي سيوصل من خلاله لفتح بلاط الملك، ومشاركته بإتخاذ القرارات.

وبذلك ستكون الإشارة واضحة على أن اليهود، لا يمكن استصغارهم أو محاولة الإضرار بهم، فإن الله قد حماهم، وقد هيأ سبل وأسباب تلك الحماية التي تحرك الأشخاص لتأدية أدوار تحقق هذا الهدف المزعوم.

والآن لنكتفي بهذا الاستعراض والنقد للنص الروائي التوراتي من سِفر أستير، ولنترك نتائج هذه المسرحية التي أدت الى نجاة الشعب اليهودي من المؤامرة التي اعدّها لهم

هامان الفارسي، بسبب ما خطط له المتدين اليهودي (مردخاي) بإستخدام تلك اليتيمة التي اسمها (أستير) لنطوي كشحاً عن ذلك النصر المزعوم، الذي تحقق نتيجة استغلال جمال وحسن المرأة.

هذا وقد كان اليهود يسوغون جرائمهم وفضائحهم، فنسبوها للأنبياء جميعهم، بإلصاق وتشويه أفعالهم بإتهام النبي لوط ومضاجعته لإبنتيه، فها هن بنات العجوز لوط يقدمن على مضاجعة أبيهن بعد تقديم الخمر له.[١]

وتشويه أفعالهم بإتهام النبي داود بقتل جاره أوريا الحثّي من أجل أن يضطجع مع زوجته الجميلة ومن ثم ليتزوجها.[٢]

وغيرها من الأمثال الكثيرة الواردة في التوراة، وما ذلك إلّا لإمتهان أعراضهم في متعهم الجنسية الإباحية، حتى

(١) ينظر: سِفر التكوين، الإصحاح١٩: ٣٣- ٣٨.

(٢) ينظر: سِفر صموئيل، الإصحاح١١: ٢- ٤.

يقولوا هكذا انبياؤنا، فما لنا نحن؟[١]

هذا ولم يكتف كتبة سفر التكوين بإبتداع قصص خيالية بعيدة عن متناول العقل ليغرسوها في عقول قارئيها من اتباع الدين اليهودي القائم على مبدأ سنّوه، يقوم على إستخدام السبل كافة، بما فيه الرذيلة البعيدة عن الطباع الإنسانية المهذبة، وفي مقدمتها تقديم المرأة لمن لهم مصلحة عنده، ليتمتع بجسدها في الوقت الذي أضمروا فيه إبتزازه أو تغيير مواقفه المعادية لهم أو لتحقيق مصالحهم المادية، بل نجد أن تعاليم التوراة لم تغفل العامل النفسي عند المرأة عندما يستغل جسدها كسلعة من أجل الهدف الذي وضع للوصول إليه، إذ عليها أن تتقبل هذا السلوك طواعية دون ترغيب أو تهديد من أحد، لا بل ينبغي أن تكون هي المبادرة لممارسة الدعارة وإبتزاز الرجال من غير اليهود ولإيقاعهم في مستنقع الرذيلة بغية تجريدهم من الخصائص الأخلاقية كافة، ناظرة

---

(١) ينظر: المرأة عبر التاريخ البشري: د. عبد المنعم جبري، نشر دار صفحات، دمشق، ط٣، ٢٠١٤م: ص٧٦.

الى أن عملها الطوعي هذا هو جزء من عبادتها الدينية من أجل إرضاء الإله يَهْوَه الذي أختصوه لهم واختص لهم.[١]

(١) المرأة في أسفار التوراة: د. علي عبد الله الجباوي، نشر دار التكوين، دمشق، ط١، ٢٠٠٩م: ص٤٢

هل حواء هي سبب المعصية بالرؤية الاسلامية؟

في هذا الموضوع طرحت المسألة، وقد تم القول الفصل فيها، بما جاء في القرآن الكريم من آيات بيّنت بوضوح تام وبيان ناصع، بأن المسؤولية تخص الإثنين، ولكن يعتبر المسؤول الأول هو آدم عليه السلام ولم تكن حواء بإعتبار ما جاء من أمرهما في الآيات التالية:

- (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ* فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ* فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) سورة البقرة: ٣٥– ٣٧، ويظهر من هذه الآية الأخيرة انّ المسبب الرئيس هو آدم عليه السلام، بإعتبار نزول التوبة عليه، وسميت بإسمه دون التعرض لحواء،

وهذا يوحي الى أنّ آدم عليه السلام كان هو المتحرك الأول نحو الشجرة وليس حواء، وإنما هي كانت تابعة له وممتثلة لما يريده.

- (وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ* وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ *

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) سورة الأعراف: ١٩ - ٢٣.

- (فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ

الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى) سورة طه: ١١٧ – ١٢٣.

فمن خلال هذه الآيات يظهر لنا كيف أن الإثنين آدم وحواء عليهما السلام قد خوطبا بعدم الإقتراب من تلك الشجرة وأيضاً تبين الآيات بأنهما أشتركا في المعصية، ولكن أيضاً بين الخطاب الإلهي في تلك الآيات بأن الذي يتحمل المسؤولية الأولى هو آدم، وأمّا حواء فمعصيتها كانت نتيجة إتباعها وطاعتها لآدم، ولذلك جاء في الآية: (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) وكذلك: (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ

الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى) فتظهر هذه الآية إن الخطاب من قبل ابليس كان موجهاً لآدم وليس حوّاء. وكذلك بيان المعصية وتعلقها بآدم بشكل مباشر (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) ثم يأتي الخطاب المباشر بعدها: (ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى).

ثـم هناك شيء مهم علينا الإلتفات إليه وعدم إهماله، وهو إن الله تعالى أراد أن يكـون آدم مخلـوقـاً يسكن الأرض، ولو خلق لغير هذا الأمر، لوجد لا محال في ذلك الشيء، ولـن تقـدر الظـروف أو تتهيأ لغيـر هذا المطلب. وعلى هذا كانت مسألة الجنة مع إسجاد الملائكة له، ووجود إبليس، هي كلها طرق معبّدة لإستقرار آدم عليه السلام على الأرض، وليؤكد الله تعالى هذه الحقيقة بقوله: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) سورة البقرة: ٣٠، فهذا الجعل لم يأت على نحو الصدفة أو له قابلية النسخ والتبديل سواء في الأمور التشريعية أو التكوينية، وهو جعل لآدم قبل أن تدب رجلاه على الأرض أو في الجنّة. ولذلك فهو قد فُضّل على الملائكة لإثبات مسألـة خـلافته فـي الأرض. ليس ذلك فقط، بـل أُمر

بالسجود له، وهنا يقول العلّامة الطباطبائي قدس سره:

وآخر العوامل للإستقرار في الأرض، و إنتخاب الحياة الدنيوية ظهور السوأة، وهي العورة بقرينة قوله تعالى: (وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ) فهو التمايل الحيواني، ويستلزم التغذي والنمو أيضاً، فما كان لإبليس همّ إلّا إبداء سوآتهما، وآدم وزوجته و إن كانا قد سواهما الله تعالى تسوية أرضية بشرية، ثم أدخلهما الجنّة لم يمكثا بعد التسوية، ولم يمهلا كثيراً، ليتم في الدنيا إدراكهما لسوآتهما ولا لغيرها من لوازم الحياة الدنيا واحتياجاتها حتى أدخلهما الله الجنة، وأنّه إنما أدخلهما الله الجنّة حين أدخلهما، ولما ينفصلا ولما ينقطع إدراكهما عن عالم الروح والملائكة، والدليل على ذلك قوله تعالى: (لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا) ولم يقل ما كان ووري عنهما، وهو مشعر بأن مواراة السوأة ما كانت ممكنة في الحياة الدنيا إستدامة، وإنما تمشت دفعة ما واستعقب ذلك إسكان الجنّة، فظهور السوأة كان مقضياً محتوماً في الحياة الأرضية، ومع أكل الشجرة،

ولذلك قال تعالى: (فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى)، وقال تعالى: (فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ) وأيضاً هو تعالى غفر خطيئتهما بعد ما تابا ولم يرجعهما إلى الجنّة، بل أهبطهما إلى الدنيا ليحييا فيها، ولو لم تكن الحياة الأرضية مع أكل الشجرة وظهور السوأة حتماً مقضياً، والرجوع إلى الجنّة مع ذلك محالاً، لرجعا إليها بعد حط الخطيئة، فالعامل في خروجهما من الجنة و هبوطهما هو الأكل من الشجرة و ظهور السوأة، و كان ذلك بوسوسة الشيطان اللعين.[1]

إذن يفهم من ذلك أن الأمر في المنظور الإسلامي عن الذي كان سبباً في خروج آدم من الجنّة لم يكن متعلقاً بحواء، ولم يكن لها حتى دور بسيط في ذلك، وإنّما جاءت بعض المرويات في الموروث الإسلامي هي التي اشارت الى ذلك، وهي بدورها كانت متأثرة بالروايات الإسرائيلية التي كانت منتشرة في شبه الجزيرة العربية، كما أوضحنا ذلك في

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج١، ص١٢٧.

الصفحات السابقة.

ففي صحيح البخاري عن ابي هريرة: (لولا بني إسرائيل لم يخْنَزِ اللحمُ، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها).[١]

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة: (لولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر).[٢]

وعن ماهية هذه الخيانة قال القاضي عياض: يعني أنها أمهن فأشبهنها بالولادة ونزع العرق، لما جرى لها في قصة الشجرة مع ابليس، وأن ابليس إنما بدأ بحواء تأكل الشجرة ثم أتت آدم فقالت له مثل ذلك حتى أكل أيضاً هو.[٣]

---

(١) صحيح البخاري، مصدر سابق: باب خلق آدم، ح ٣٣٣٠.
(٢) صحيح مسلم، مصدر سابق: باب لولا حواء لم تخن انثى زوجها الدهر.
(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم: الحافظ أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (ت٥٤٤هـ) تحقيق د. يحيى اسماعيل، مصر، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م: ج١، ص٦٨٢.

وكذلك قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: فيه إشارة إلى ما وقع من حواء في تزيينها لآدم الأكل من الشجرة حتى وقع في ذلك، فمعنى خيانتها أنها قبلت ما زين لها إبليس، حتى زينته لآدم، ولما كانت هي أم بنات آدم أشبهنها بالولادة ونزع العرق، فلا تكاد امرأة تسلم من خيانة زوجها بالفعل أو بالقول، وليس المراد بالخيانة هنا ارتكاب الفواحش حاشا وكلا، ولكن لما مالت إلى شهوة النفس من أكل الشجرة وحسّنت ذلك لآدم، عدّ ذلك خيانة له، وأمّا من جاء بعدها من النساء فخيانة كل واحدة منهن بحسبها.[1]

وفي تفسير المنار للعلّامة محمد رشيد رضا: نسي آدم عهد ربّه، ولم يكن له من العزم ما يصرفه من متابعة امرأته، ويعتصم به من تأثير شيطانه، كما قال تعالى: (وَلَقَدْ عَهِدْنَا

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣- ٨٥٢هـ): ج٦، ص٣٦٨.

إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا).[1]

وجاءت رواية في مستدرك الوسائل للنوري عن أبي بصير، في خبر طويل في خلقة آدم وحواء، ودخولهما الجنة وخروجهما منها، إلى أن قال: قال ابن عباس: فنوديت ياحواء ومن الذي صرف عنك الخيرات التي كنت فيها، والزينة التي كنت عليها؟ قالت حواء: إلهي وسيدي ذلك خطيئتي، وقد خدعني إبليس بغروره وأغواني، وأقسم لي بحقك وعزتك أنه لمن الناصحين لي، وما ظننت أن عبداً يحلف بك كاذباً، قال: الآن أخرجي أبداً فقد جعلتك ناقصة العقل والدين والميراث والشهادة والذكر ومعوجة الخلقة شاخصة البصر، وجعلتك أسيرة أيام حياتك، وأحرمتك أفضل الأشياء، الجمعة والجماعة والسلام والتحية، وقضيت عليك بالطمث وهو الدم وجهة الحبل والطلق والولادة، فلا تلدين حتى تذوقين طعم الموت، فأنت أكثر

---

(١) تفسير المنار: محمد رشيد رضا: ج٨، ص٣١١

حزناً، وأكسر قلبا وأكثر دمعة، وجعلتك دائمة الأحزان، ولم أجعل منكن حاكماً، ولا أبعث منكن نبياً، الخبر.[1]

عموماً ان الآيات القرآنية كافية جداً بعدم إيكال تبعات خروج آدم وزوجه من الجنة الى حواء. وإنّما كان المسؤول عن ذلك الهبوط هو آدم عليه السلام بالدرجة الأولى، وإن كانت حواء قد طاوعته، ولذلك كانت خطابات النسيان والغواية والتوبة موجهة إليه مباشرة كما بيّنا ذلك في الأوراق السابقة.

وفي هذا المقام يطرح العلّامة عبد الله الجوادي الآملي سؤالاً ويجيب عليه:

وهو لماذا قد جُعل آدم أصلاً في الخطاب؟ وهل يمكن أن يستفاد من ذلك تبعية جنس المرأة لجنس الرجل بنحو عام؟

---

(١) مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل: الحاج ميرزا حسين النوري الطبرسي (ت١٣٢٠هـ)، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام: ج٤، ص٢٨٦، كتاب النكاح.

والجواب الصحيح هو أن حواء عليها السلام كانت تحت تدبير آدم عليه السلام ومع غض النظر عن الزوجية، فإن آدم كان إمام حواء ونبيّها المستقبلي. ولولم يتأثر آدم من الوسوسة لبقيت حواء سليمة ولم تصب بشيء، فآدم عليه السلام كان المحور والأساس سواء من جهة الفضيلة أو من جهة الوسوسة والخروج من الجنة، وبهذا اللحاظ جعل آدم اصلاً في الكثير من الخطابات والتعابير.

والحق أنّ مثل هذه الخطابات ليس فيها أيّة دلالة على تبعية جنس المرأة وكونها فرعًا بالنسبة إلى جنس الرجل، وكل ما لدى الإنسان من أنواع الكمال ترتبط بإنسانيته وإنسانية الإنسان بنفسه، لا بكونه رجلاً أو أمرأة، لأنّ الذكورة والأنوثة لا مجال لها في الروح الإنسانية المجردة، وإنّما هي ترتبط ببدنه و تركيبة جسمه.[1]

---

(١) تسنيم في تفسير القرآن: العلّامة الشيخ عبد الله جوادي الطبري الآملي، نشر دار الإسراء، بيروت، ط٢/ ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م: ج٣، ص٣٩٦.

الروايات الإسلامية والإنتقاص من عقل المرأة وإيمانها

في هذا السياق هناك أمراً دائمًا ما يتطرق له وتثار من خلاله عدّة اشكالات حول الإسلام ونظرته للمرأة، فقد جاء في بعض المصادر الإسلامية أحاديث وروايات يبدو من ظاهرها الإنتقاص من عقل المرأة وإيمانها، ومن بين هذه الروايات ما نسب الى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الخطبة الثمانين من نهج البلاغة، فقد وصف النساء فيها بنواقص الإيمان والعقل، وقد قالها بعد رجوعه من حرب الجمل، وهي أكثر شهرة من الروايات الأخرى،[1] حيث قال: (معاشر النّاس، إنّ النّساء نواقص الإيمان، نواقص الحظوظ، نواقص العقول: فأمّا نقصان إيمانهنّ فقعودهنّ عن الصّلاة والصّيام في أيّام حيضهنّ، وأمّا نقصان حظوظهنّ فمواريثهنّ على الأنصاف من مواريث الرجال، وأمّا نقصان عقولهنّ

---

(١) ينظر الكافي: ج٥، ص٣٩، ح٤، ووسائل الشيعة: ج٧، ح٣٣٧٥٦، وبحار الأنوار: ج٨، ص١٧٩.

فشهادة امرأتين كشهادة الرجل الواحد، فاتّقوا شرار النّساء، و كونوا من خيارهنّ على حذر، ولا تطيعوهنّ في المعروف حتّى لا يطمعن في المنكر.[١]

وللوهلة الأولى يمكن الإستدلال على ضعف الأحاديث الواردة في نهج البلاغة بفقدان السند فيها أساساً، فيكون الحديث أيضاً فاقداً للإعتبار اللازم، خاصة وأنّه وارد في مجال القضايا العقدية. إلّا أن اشكالاً من هذا القبيل لا يبدو وجيهاً، لأنه لو فرض عدم صدور هذه الرواية بالخصوص عن الإمام علي عليه السلام، لكن أحاديث نقصان العقل وردت بكثرة في المصادر الشيعية والسنّية، الى درجة عدم إمكان إنكار صدورها من حيث المجموع، والقول بكونها جميعاً موضوعة، وإن كلّ منها موسوماً بالضعف السندي، لاسيّما مع وجود معظم تلك الأحاديث في أمهات الكتب الموثوقة، نحو (الكافي) و (من لا يحضره

---

(١) نهج البلاغة: تعليق آية الله السيد محمد الحسيني الشيرازي، نشر دار العلوم، بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

الفقيه) ولا يخفى أن بعض الأحاديث أشارت الى هذا التفاوت بصراحة، وبتعابير من قبيل (نواقص العقول) (ناقصات العقول)، وبعضها أشار الى أمور ملازمة الى نقصان العقل.[1]

هذا وقد حاول بعض المفكرين والباحثين إيجاد مخارج وتأويلات لما جاء في رواية النهج وغيرها، ليبينوا المقصود الواقعي من تلك الروايات وعدم الإعتماد على ما يظهر منها للوهلة الأولى.

ثم أنّ البحث في موضوعة المرأة في كلام الإمام علي عليه السلام هو من السهل الممتنع. فالمنسوب الى الإمام في نهج البلاغة وسائر النصوص التاريخية والروائية، تظهر عليه لغة اللوم والإنقاص من قدر المرأة، وهذا الأمر أدّى الى فتح الباب أمام جدل واسع والخروج بأحكام متناقضة، إنّ البحث

---

(١) المرأة هويتها الجنسية وأدوارها الإجتماعية، مصدر سابق: ص١٠٢.

عن مكانة المرأة عند الإمام علي عليه السلام يتوقف على تتبع كلام الإمام كلّه، وما يرتبط به من قضايا تاريخية، والإطلاع الواسع على الظروف التاريخية والإجتماعية المهيمنة في ذلك العصر. وكذلك يتوقف على سند الروايات والنصوص المنقولة، سواء من ناحية جهة الصدور أم جهة المتن.[1]

وفي صدد الإجابة عن هذه الشبهة يقول الشيخ جوادي آملي:

أحيانـًا يتعرض الأشخاص في حادثة ما، وتتعرض ظروف وعلل وأسباب تلك الحادثة، كمكانها وزمانها، إلى ذم أو مدح بسبب مجموعة وقائع تاريخية، أن معنى ذم أو مدح بعض الحوادث أو الأمور الجانبية لتلك الحادثة ليس

---

(١) مسألة المرأة: مهدي مهريزي، ترجمة علي الموسوي، نشر مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م: ص٢١٣.

لأن أساس طبيعة ذلك الشيء قابل للذم أو المدح، بل إنّ تلك الأرضية الخاصة سببت هذا المدح أو الذم، أحياناً تمدح قبيلة من القبائل وذلك بسبب ظهور صالحين من هذه القبيلة في ذلك العصر، ثم لا تمر فترة طويلة حتى يتغير الوضع، حيث يظهر أشخاص آخرون من هذه القبيلة يتعرضون للذم، وأحياناً بالعكس. ... هذا الذم والتوبيخ ليس ملازماً لتلك المنطقة الى الأبد، بل هو مرحلي. ودليله هو أن الرأي يمكن أن يتراجع بتحول فكري ومسألة عقائدية. كما حصل ذلك، وإذا كان هناك ذم للمرأة في نهج البلاغة، فيظهر أن بعض ذلك الذم يعود الى قضية حرب الجمل، كما ذمت البصرة والكوفة وغيرهما مع أنّ البصرة خرجت رجال علم كثيرين، وقدمت الكوفة رجالاً ثواراً كثيرين للإسلام، وكثير من الذين قاموا بالمطالبة بدم سيد الشهداء عليه السلام كانوا من الكوفة ... ولا يمكن القول: إنّ البصرة والكوفة سيئتان الى الأبد وتستحقان الذم لأنهما ذمتا سابقاً. إنّ قضايا تاريخية في مرحلة حساسة تؤدي الى الذم أو المدح ثم مع

مرور تلك المرحلة ينتفي المدح أو الذم أيضاً.[١]

ثم يقول: الرواية التي وردت في نهج البلاغة لم تطرح بوصفها قضية حقيقية، فهي تقريباً تشبه قضية شخصية أو قضية خارجية.[٢] أساس القضية هي أن عائشة شنت هذه الحرب، والجميع يؤيد أنها كانت السبب والمحرك. وبعد أن

---

(١) جمال المرأة وجلالها: الشيخ جوادي آملي، نشر دار الكاتب العربي، بيروت، ط١، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م: ص٣١٨ و٣١٩ بتصرف.

(٢) القضية الخارجية: وهي القضية التي يكون موضوعها في عالم الخارج، بحيث يكون النظر والتوجه الى أفراد الموضوع الموجودة فعلاً في أحد الأزمنة الثلاثة، سواء الآن أو المستقبل أو الماضي.

أمثلتها:

(كل جندي في المعسكر مدرب على حمل السلاح، بعض الدور الماثلة للإنهدام في البلد هدّمت، كل طالب في المدرسة مجدّ، السمك غالي الثمن).

كل هذه القضايا قضايا خارجية، بمعنى أن موضوعها قد لوحظ فيها الأفراد الموجودة والمحققة في الخارج لا الذهن، وهذا لا يعني أننا لا نتصور الموضوع أصلاً، بل لابد من التصور حيث لا يمكن الإسناد من غير تصور، ولكن التصور بخصوص القضية الخارجية، يختلف تماماً عنه في الذهنية، هنا يمكن النظر كل النظر الى الأفراد المتواجدين في الخارج لا الذهن.

ثم إن مؤلف القضية الخارجية قد يعبر عن الموضوع بعنوان كلي إلّا أن غرضه من ذلك هو ما يصدق عليه هذا العنوان من أفراد، فموضوع القضية روحاً هي الأفراد وإنّما جاء بالعنوان الكلي لغرض التعبير به عن الأفراد في الخارج، وقد يذكر الأفراد التي هي موضوع القضية الخارجية إبتداءً.

مثال: أولاد زيد علماء: مؤلف القضية بعد أن تحقق من وجود أولاد زيد وأحصاهم حكم عليهم بأنهم علماء، وبدلاً من أن يعدد أسماءهم توسّل عوضاً عن ذلك بذكر عنوان كلي يصدق عليهم، وهذا العنوان ليس مقصوداً بنفسه، وإنّما هو لغرض الإشارة الى موضوع القضية واقعاً، وهم الأفراد الموجودة والذين يجمعهم عنوان أولاد زيد، والحكم المذكور لا يشمل غير الموجودين حين تأليف القضنية، فلو ولد لزيد ولد آخر، فإنه لا يكون مشمولاً للحكم، لأن موضوع القضية واقعاً ليس هو عنوان أولاد زيد وإنّما هو خالد وبكر وعامر مثلاً، غايته أن

المؤلف للقضية استعاض عن تعداد اسمائهم بذكر عنوان يجمعهم.

القضية الحقيقية:

وهي ما إذا كان وجود الموضوع في نفس الأمر والواقع، بمعنى أن الحكم قد ورد على الموضوع، بما هو موضوع، فشمل أفراده جميعاً المحققة الوجود والمقدّرة الوجود؛ فالحكم غير مستند الى الأفراد المتواجدين في الخارج فعلاً، بل نحكم على حقيقة الفرد، فكلّ ما تصدق عليه تلك الحقيقة وينطبق عليه ذلك المفهوم وإن لم يوجد اصلاً فهو داخل في الموضوع، ولهذا يقع مقسماً للموجود والمعدوم، ويصحّ أن يقال كل فرد من الطبيعة إمّا موجود او معدوم، بلا مجازية ولا تأويل، فيشمله الحكم كطبيعة مثل قولنا: (كل مثلث موجود زواياه يساوي قائمتين)، فالموضوع في هذه القضية هو (المثلث)، ولا ننظر الى المثلث المرسوم فعلاً، بل الميزان في كونه مثلثاً.

ومقتضى القضية الحقيقية هو ثبوت الحكم لكل فرد مشمول للموضوع، اتفق له الوجود خارجاً أم لا، وبذلك تختلف القضية الحقيقية عن القضية الخارجية، فالقضية الخارجية يكون فيها الموضوع محقق الوجود، ولذلك لو استجد فرد يصدق عليه عنوان الموضوع فإنه لا يكون مشمولاً لحكم القضية الخارجية. وأمّا القضية الحقيقية فإن موضوعها لما كان مقدر

الوجود، فإن ذلك يقتضي ثبوت الحكم في القضية الحقيقية لكل فرد صدق عليه الموضوع، حتى لو لم يكن موجوداً حين تأليف القضية.

والسرّ في ذلك، أننا ضمن بياننا للموضوع، وذكرنا السبب والعلّة، فعندما نقول: (كل مثلث مجموع زواياه تساوي قائمتين)، كأننا قلنا إنّ العلّة والسبب في كون زوايا المثلث تساوي قائمتين هو كونه مثلثاً، وعليه كلما توفرت هذه العلّة جاء بعدها المعلول- لا محالة- من غير تحديد لزمان أو مكان.

وعلى ضوئه نقول: القوانين المجعولة سواء في الشريعة او العُرف، لابدّ وأن تكون بنحو القضايا الحقيقية، لتشمل جميع الموارد التي ينطبق عليها الموضوع، ومن هنا صحّ إطلاق القانون عليها، لأن القانون سواء كان طبيعياً او شرعياً او عرفياً، هو القضية الحقيقية بعينها، لا فرق بين المفهومين اصلاً.

وكمثال على القضية الحقيقية:

(كلّ حديد يتمدد بالحرارة) فلا نحكم على خصوص الحديد الموجود فعلاً، بل نعمم الحكم على كلّ ما يطلق عليه الحديد- سواء كان موجوداً في الزمن الماضي أو في الحال وحتى الذي سيوجد في المستقبل- فما دام الحديدُ حديداً، وإن وجد في كوكب آخر غير الأرض، يشمله حكم التمدد بالحرارة.

ركبت عائشة جملاً في قضية معركة الجمل وحرّكت طلحة والزبير أيضـاً، وسقطت دماء كثيرة، وأخيراً انكسروا، كتب أمير المؤمنين عليه السلام رسالة إلى معاوية في الشام، نذكر الآن بعض من جمل الرسالة الموجودة في نهج البلاغة حتى يتضح أن هذه المسألة تتعلق بقضية حرب الجمل، في خطبة نهج البلاغة قال في ذم أهل البصرة بعد وقعة الجمل: (كنتم جند المرأة واتباع البهيمة) ثم يذكر أنهم قاموا بعمل غير مدروس، وفي الخطبة١٤ ذم أيضـاً هذه الفئة وذم البصرة.

ولذلك فالقضايا الذهنية والخارجية ليس لها اعتبار في العلوم، وأما الحقيقة فهي التي تستعمل فيها جميعـاً، وذلك لأن العلوم تتطرق الى مفاهيم عامة وقوانين شاملة تستوعب الأزمنة والأمكنة المختلفة، بل هي أعلى مستوى من الزمان والمكان، ولهذا سمّيت مسائلها علمية، لأن الميزان في العلم هو الشمولية والإستيعاب. (الضوابط المنطقية: الشيخ عباس الموسى، نشر مؤسسة الراضي لإحياء التراث، بيروت، ط١، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م: ص٢٧٧ وما بعدها بتصرف.

أن مسألة اتباع البهيمة أي اتباع الجمل، وذم اتباع الجمل، ليس لأن الجمل سيئ، بل لأن راكبه عمل عملاً سيئًا في هذه الحادثة، وإلا فالنبي صلى الله عليه وآله ركب ناقة وفي قضية الهجرة، جاء من مكة إلى المدينة ولما دخل المدينة قال: (خلّوا سبيلها فإنها مأمورة)، كلّ شخص اقترح على النبي صلى الله عليه وآله أن ينزل في داره، النبي قال حسب هذه الرواية أن يخلوا سبيلها، فإن لديها مأمورية إلهية، وإنه سينزل في المكان الذي تقف وتبرك وتنام فيه تلك الناقة، ووقفت الناقة في منزل أبي أيوب الأنصاري الذي كان من أفقر أهل المدينة.

فالذهاب وراء الجمل أو ركوب الجمل أو العمل على أساس حركة الجمل، ليس فيه مذّمة، فلو أنّ أمير المؤمنين عليه السلام ركب جملاً أو فرسًا أو بغلة، وتحرك عدد من الأشخاص على أثره، فهل يمكن القول أن أتباع الجمل

مذمومون أو أن أتباع الفرس والبغلة مذمومون؟.[1]

هذا وقد اعترض بعضهم على تفسير رأي الإمام علي عليه السلام في المرأة بكراهية عائشة، وخروجها عليه بحرب الجمل، مما يستوجب أن يكون رأيه في الرجل تماماً كرأيه في المرأة، لأن طلحة والزبير ومعاوية وابن العاص ومن لفّ لفّهم فعلوا ما فعلت عائشة وزيادة.[2]

وسنجيب على الإعتراض بالشكل التالي:

إن مسألة خروج عائشة على أمير المؤمنين عليه السلام في حرب الجمل، قد فعلها غيرها من الرجال، وقد ظلموا علياً أيضاً مثل معاوية وغيره، فيكون حالهم في هذا الخروج حال عائشة، وحينئذ سيكون الرجال أيضاً ناقصي العقول، وحالهم حال النساء في خروجهم ضد الحق.

---

(١) جمال المرأة وجلالها، مصدر سابق: ص٣٢٠ وما بعدها بتصرف.

(٢) مسألة المرأة، مصدر سابق: ص٢٣٠.

والحقيقة أن المسألة لا تقاس بهذا الشكل للأسباب:

أولاً: إن مسألة صراع الحق مع الباطل مسألة إرتبطت منذ بداية الوجود الدنيوي للإنسان، وما انفك الشيطان يتحرك ضمن هذه الرؤية لمنع الحق من الوصول الى التحكم بالقرار وبالتالي لتسود العدالة وتتحقق بأعلى مراتبها. وهذا الأمر قد إرتبط بالرجال غالباً، فنرى الصراعات على السلطة، منذ بدء البشرية تتمحور بهذا الإتجاه، لذلك نشبت الحروب وكثر القتل فيما بينهم دون النساء، حتى أصبح هذا الأمر معروفاً، بل هو من البديهيات وأوضح الواضحات، ولذلك عندما تأتي امرأة لتمارس دوراً عسكرياً وقتالياً، ومن أعلى مستوى قيادي لتواجه بهذا الإعداد والتهيؤ العسكري جهة الحق بالمباشر، فهذا مما لم يحدث قط، لا في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ولا في عهد الخليفة الأول والثاني والثالث، ولا في المجتمع الإسلامي بشكل عام، إلّا ما وقع مع أمير المؤمنين عليه السلام في خلافته عندما خرجت عائشة تحشد الناس عليه، ومن ثم تقود ذلك الجيش الكبير،

لتنتهي المعركة مخلّفة الآلاف من القتلى، ولذلك حاولت أن تؤسس لنقطة مفصلية وحساسة في البعد السياسي لحركة الوجود الإسلامي لم تسبق بمثلها من قبل، حتى في الدائرة الأوسع من ذلك الوجود. بإعتبار إنّ صراع الرجال فيما بينهم كان صراعاً مألوفاً ودارجاً، بحسب المصالح والأطماع السائدة في كل زمان ومكان.

فلا حاجة بعد لأن يذكر علي عليه السلام هذا الأمر المتعلق بنقصان العقل، كون أنّ كل من الطرفين المتصارعين من الرجال، يرى أنّه الأولى والأرجح بهذا الأمر من غيره، ولأن الأعراف والتقاليد المتبعة هي سائرة بهذا الإتجاه.

أما عندما تأتي المرأة، وتحشر نفسها في هذا الأمر، الذي ليس لها فيه ناقة ولا جمل، وضمن ضوابط تلك المرحلة من التاريخ، بما يحمله من إرتكاز ديني وعقائدي، فهذا يدلّ على نقصان عقلها وورعها ودينها، وذلك لأنّها قد خالفت العادات والتقاليد والأعراف، فضلاً عن الدين والشريعة. وبهذا الإعتبار سيسقط الإشكال أو الإعتراض

أصلاً، ولن يبقى مبرر لوجوده، متى ما التفتنا الى هذا الأمر بدقة وتركيز بعيد عن العاطفة والميول.

ثانيـاً: هناك طاقة عند النساء، وهذه الطاقة كبيرة وكامنة بين جوانحهن، لا تتحرك ولا تظهر الى الخارج إلّا تحت تأثير الظروف الخارجية الواقعة في المنطقة، وكأن الله تعالى قد جعل هذه القوّة للمرأة تستخدم في الظروف الطارئة، التي تستدعي تحركها وإنطلاقها نحو هدفها المقصود، وبغض النظر عن صحة أو خطأ تصورها واعتقادها، وخطأ هدفها أو صوابه، فهذا الأمر يتحقق بإتباعها وإنقيادها للجهة التي تحتضنها والتي تنجذب لطبائعها وغاياتها.

فإذا كانت أهداف تلك الجهة شيطانية، خرجت تلك القوّة والطاقة لتكتمل في أعلى نقطة لها بوجود عائشة. والتي هيأت لها بدايات ذلك التحرك هي هند زوجة أبي سفيان، لتكون هي الشاخص الأنثوي الذي تحرك بظرف طارئ واستثنائي، لتؤدي دوراً ما كان من المفروض عليها أن تؤديه،

وهي تسير ضمن ضوابط خلقية وتربوية حددت لها كأنثى.

وأمّا إذا كانت أهداف تلك الجهة رحمانية وتنبع من الإيمان كلّه، خرجت تلك القوّة لتكتمل في أعلى نقطة لها بوجود زينب عليها السلام، والتي هيأت لها بدايات ذلك التحرك أمّها فاطمة الزهراء عليها السلام، لتكون هي الشاخص الأنثوي الذي يتحرك بالظرف والمكان والمناسب تحت ضغط الظروف الطارئة والعصيبة، التي تستوجب منها ذلك التحرك الذي يجعل منها طاقة كبيرة ومحيرة، لتعبر من خلالها محيط الأنثى الدنيوي، ولتنتقل الى دائرة الوجود الأوسع، الى ذلك البعد السماوي لتتجرد فيه الروح عن تعلقاتها الجسمانية وقالبها الدنيوي الذي حَددّ لها بعدها الحركي.

وأمّا في مسألة شهادة المرأة والنسيان فيقول العلّامة جوادي آملي:

تعليل الإمام عليه السلام في مسألة نقصان العقل هو أن

شهادة امرأتين هي في حكم شهادة رجل واحد، جاء في القرآن: (فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ) سورة البقرة: ٢٨٢، ولكن هذا لا يعود إلى مسألة التفكير والعقل، فالقرآن يذكر نكتة ذلك ويقول: (أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى). امرأتان من أجل أن يكون لكليهما حضور في الحادثة، وهذا يعود إلى ضعف الذاكرة وليس إلى ضعف العقل.[١]

ويرد على هذا الرأي:

أولاً: إنّ استعمال لفظ العقل في معنى الحافظة غير معهود.

ثانيًا: إن بعض الروايات عدّت الحفظ من أجناد العقل.[٢]

---

(١) جمال المرأة وجلالها، مصدر سابق: ص٣٢٤.

(٢) ينظر: المرأة هويتها الجنسية وادوارها الإجتماعية، مصدر سابق: ص١٠٤.

ويمكن أن نضيف ردّاً آخر:

بعد أن علّل آية الله جوادي آملي سبب شهادة المرأتين الى ضعف الذاكرة، وليس الى ضعف العقل، قال: لأن المرأة مشغولة بأعمال البيت وتربية الطفل، ومشكلات الأمومة، لذا من الممكن أن تنسى تلك الحادثة التي رأتها. بناءً على هذا تحضر امرأتان في هذه القضية حتى تذكر أحداهما الأخرى.»[1]

ولكن إنّ ما يحصل من ضعف للذاكرة بخصوص المرأة نتيجة بعض الأعمال والمسؤوليات اليومية، فهو عينه يحصل للرجل، بل فاعلية أعماله ومسؤولياته والواجبات المتعلقة به أزاء أسرته وإرتباطه بالمجتمع وما يفرزه من تداخل في العلاقات الإجتماعية، هي أكبر وأعقد من مشاكل ومسؤوليات المرأة، مضافاً الى ما يعانيه من مواجهات قاسية وصعبة، وهو يؤدي عمله المعيشي من أجل الحصول على

---

(١) جمال المرأة وجلالها، مصدر سابق: ص٣٢٤.

الكسب والرزق المناسب، فضلاً عمّا إذا حدثت المواجهات العسكرية والقتالية، نتيجة الأزمات التي تحدث بين الفينة والأخرى. فهذه كلّها مواجهات لمشاكل وأزمات متعددة الصور، ومختلفة المباني الفكرية للمواجهة، وبعضها قد يكون مصيرياً، ويحتاج الى إتخاذ قرارات آنية، إن أخطأ بها قد يؤدي الى هلاكه وهلاك غيره، فتؤدي بالتالي الى ضغوط شديدة تشتت من خلالها الذاكرة، وقد تضعف ويصعب استحضار المعلومات والمشاهد السابقة لدى الرجل. هذا بعكس المرأة التي طالما كانت أعمالها ومشاكلها تنصب في قالب واحد، أو عدّة قوالب تكون في الأغلب متشابهة أو متقاربة، كواجبات الأمومة وأعمال البيت. فكل هذه الأشياء يمكن أن تحصر وتصبح في الغالب نمطية ومتكررة لدى المرأة.

وهناك من قال: أنّ كلمة (نقص) تستعمل في كثير من الأحيان مقابل السعة أو الزيادة وهي تدلّ على النقص المادي وليس (العيب). وفي بعض الأحيان تستعمل هذه الكلمة من

حيث القيمة الواقعية في العيوب ومنها العيوب الظاهرية مثل نقص عضو. فالنقص بالمعنى الأول يوجد في جميع الموجودات عندما يقاس بعضها ببعضها الآخر. وعلى سبيل المثال، فإن كثيراً من الحيوانات لها إحساس أقوى من الإنسان ويعتبر الإنسان بالمقارنة معها ناقصاً. مثلما الإنسان له الأفضلية على الموجودات الأخرى من حيث التدبير والعقل. ومثلما قلنا، فإن النقص لا يمكن اعتباره بهذا المعنى بمنزلة العيب. فكل موجود من الموجودات يقوم في إطار جغرافياه التكوينية بدوره على أساس المسؤولية التي تقع على عاتقه. وقد تزود هذا الموجود بإمكانيات حسب نفس المسؤولية، مع وجود هذا التحليل، فإنه يمكن اعتبار الموجود معيباً عندما لا تتوفر الأدوات والإمكانيات اللازمة للقيام بالمسؤوليات المنوطة به.

فكلمة (العقل) تحتاج إلى دراسة من حيث المفهوم. فالمفهوم اللغوي لهذه الكلمة يعني في الأصل الحبس والمنع، ولهذا فإن الحبل الذي يربط به ركبة الجمل حتى لا

يهرب يسمى عقال، وبهذا التعريف فالعاقل هو الذي يمنع نفسه من السير وفق هواه وارتكاب الأخطاء. ففي بعض الأحيان يأتي العقل بمعنى التعقل، أي استخدام قوّة العقل، لأن الكثير من الأشخاص يتمتعون بموهبة العقل، ولكنهم لا يستخدمونها.[1]

أقسام العقل من الناحية الوظيفية

هنا لابد أن نشير الى شيء له أهمية في موضوعنا هذا، وهو العقل وإمكانية تقسيمه من الناحية الوظيفية، حسب رأي الفلاسفة أو كما تفيده بعض الروايات الإسلامية، فقد أكد الفلاسفة المسلمون منذ عصر ابن سينا على وجود وظيفتين للقوة العاملة وهما:

---

(١) شخصية المرأة: محمد تقي سبحاني، تعريب علي بيضون، نشر مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م: ص٢٤٤.

العقل النظري:

فقد تكون وظيفة العقل إدراك حقائق الأشياء، وإطلاق الأحكام حول هل أن للمعنى الفلاني حقيقة أم لا؟ وما حقيقة الشيء الفلاني؟ وهل لهذا الشيء هذه الخصوصية أم لا؟ وهو الأساس في العلوم الطبيعية والعلوم الرياضية والفلسفية والإلهية.

فهو القوّة التي تتكفل بإدراك الإنسان لعالم الواقع، ومن ضمنها إدراك البديهيات وترتيب المقدمات لإستنتاج الأمور النظرية.

العقل العملي:

وأمّا الوظيفة الأخرى للعقل فهي الحكم فيما ينبغي وما لا ينبغي فعله، والامور والقيم الأخلاقية، فما يجري الحكم به في العقل العملي هو حسن العمل وقبحه، ولذا تطرح هنا مفاهيم من قبيل: الحسن، والقبح، وما ينبغي، وما لا ينبغي،

والجميل، والقبيح، والأمر، والنهي، وما شاكل. كما إنّ العقل العملي يعدّ المعيار في علم الأخلاق، وتدبير المنازل، وسياسة المدن، وهو من يحدد مسار السعادة في الحياة.

فهو إذن المعني بإدراك حسن الأشياء وقبحها، فبمساعدة العقل يمكن تشخيص الخير من الشرّ. وفي تعريف آخر فإنّ العقل قوّة تتولى التشجيع على الأعمال الخيرة، والإبتعاد عن الأعمال القبيحة بالإضافة الى إدراك الحسن والقبح[1]

العقل الأداتي (العقل الآلي):

طرح فلاسفة الغرب، ومنذ عصر (هيوم) وظيفة جديدة للعقل، واستخدموا مصطلح (العقل الآلي) أو (الأداتي) بمعنى قدرة التخطيط وإتخاذ أفضل السبل وأنجح الوسائل لبلوغ الهدف. ومن هنا، فالمنظمات والمؤسسات

---

(١) ينظر: المرأة هويتها الجنسية، مصدر سابق: ص٩٩، وشخصية المرأة: ص٢٤٤.

والتكنلوجيا الحديثة من أبرز المظاهر في مجال وظائف العقل الآلي، ولا ينبغي الخلط بين العقل الآلي والعقل العملي، أو اعتبارهما شيئًا واحداً، ذلك أن وظيفة العقل العملي كانت عرضة للنقد والمناقشة في الفكر الإنساني الحديث، ولا يشخص العقل العملي من وجهة نظره القيم الأخلاقية، وعلى العكس من ذلك، يعين العقل الآلي الإنسان على تحقيق طموحاته وأمنياته، وبلوغ مراميه وأهدافه. بناءً على ذلك، يمكن دراسة وظيفة العقل الآلي سواء افترض استناد الأهداف الى الأحكام العقلية العملية، أم أفترض القول بعدم مرجعية العقل العملي في إختيار ما ينبغي وما لا ينبغي فعله، وانتخاب الأهداف.[1]

وفي هذا الصدد يذكر الباحث محمد تقي سبحاني ثلاث وجهات نظر بخصوص بيان معنى العقل الذي ورد في رواية النهج والروايات الأخرى الواردة بهذا الشأن وهي:

---

(١) المصدر نفسه: ص١٠٠.

النظرية الأولى:

ترى أن المرأة والرجل متساويان في التمتع بالقوى العقلية، وكذلك المقدرة على استخدام هذه القوى في المعاني الثلاثة المذكورة- العقل العملي -العقل النظري -العقل الآلي - ومع ذلك، وحيث إنّ النسوة من خلال العلاقات الإجتماعية وعن كثير من المسؤوليات والاهتمامات، فإنهن ضعفن تدريجياً. عن استخدام هذه القوى، وفي النهاية، حرمن من قدرة التدبير والإستنتاج. وعلى هذا فإن نقص العقل في النساء ظاهرة إجتماعية وثقافية، وليست ظاهرة تكوينية، ومن هنا قيل إنّ الرجال كان لهم دور ظالم في توفير أجواء غير ملائمة من أجل نمو عقل النساء. وعلى هذا، فإن تغيير الظروف والعلاقات الإجتماعية يمكن أن تسدَّ هذا النقص. والنتيجة أن نقص عقل النساء في كلام الإمام علي عليه السلام ظاهرة ترتبط بظروف إجتماعية خاصة، وليس بخصائص عامة للنساء، وربما تواجه النساء في العصر الحديث ظروفاً بحيث يجعلهن يتمتعن بنمو عقلي يضاهين

فيه الرجال.

وقد قالوا في توضيح وجهة النظر هذه: إنه في المجتمعات البدوية التي كانت المنتوجات الزراعية متوفرة حول بيوتها، كان بإمكان المرأة والرجل جمع المواد الغذائية بصورة مشتركة، وحيث إنّ المرأة كانت تتولى مسؤولية الولادة وتربية الأولاد، فإنها لم تتمكن من الإبتعاد عن منزلها للقيام إلى جانب زوجها بمهنة الصيد. فالحاجة إلى الصيد بصورة أكبر جعل الرجال يقومون بالبحث عن أدوات للقيام بهذه المهمة، وبذلك تم تقسيم العمل بصورة تدريجية في الحياة العائلية والإجتماعية. فالمرأة انصرفت لوظيفتها الخطيرة والحساسة والبناءة، ولكن الرجل تعلم أساليب جديدة تتضمن الخديعة في زحمة المجتمع، كما تعلم المكر والإحتيال، وحيث إنّ المرأة كانت قليلة الحضور في داخل المجتمع والسوق والحرب، فإنها بالمقارنة مع الرجل كانت أقل إطلاعاً. إذن فبعيد عن المنطق اعتبار هذا دليلاً

على ضعف قدرة عقل المرأة.»[1]

ومن الذين تبنوا هذا الرأي قاسم أمين حيث قال: إنّ المرأة إنسان مثل الرجل، لا تختلف عنه في الأعضاء ووظائفها، ولا في الإحساس، ولا في الفكر، ولا في كلّ ما تقتضيه حقيقة الإنسان من حيث هو إنسان، اللهم إلّا بقدر ما يستدعيه اختلافهما في الصنف.

فإذا فاق الرجل المرأة في القوّة البدنية والعقلية، فذلك إنما: لأنه اشتغل بالعمل والفكر أجيالاً طويلة كانت المرأة فيها محرومة من استعمال القوتين المذكورتين، ومقهورة على لزوم حالة من الإنحطاط تختلف في الشدّة والضعف على حسب الأوقات والأماكن.»[2]

هذا وقد اعترض الباحث على وجهة النظر هذه بعدّة

---

(١) شخصية المرأة، مصدر سابق: ص٢٤٦.

(٢) تحرير المرأة: قاسم أمين، نشر دار المعارف، القاهرة، ط١، ٢٠١٧م: ص٤٨.

اعتراضات منها:

١- نتيجة الكلام المتقدم، هي نقص المعلومات الإجتماعية وعدم معرفة تعقيدات العلاقات الاجتماعية، ومن الواضح أن هذا المعنى يختلف عن نقصان العقل. وقد قلنا، إن نقصان العقل في المباحث الإجتماعية يعني أن الشخص يملك قدرة أقل على التدبير الإجتماعي وليس لأنه يملك معلومات اجتماعية أقل. وعلى هذا، فإن هذه النظرة لا يمكنها أن تفسر مفهوم نقص العقل وأن الشاهد الوحيد على النقص هو معلومات المرأة.

٢- إذا قبلنا جدلاً بأن المرأة والرجل ليس لديهما اختلاف في القابليات، ويعود كل التفاوت بين الجنسين إلى التأثيرات الإجتماعية، لكان على الشريعة الإسلامية أن تقترح حلولاً لإصلاح هذه الحالة والإرتقاء بالمرأة إلى وضع متساو مع الرجال، لكي يزول هذا الانحراف التاريخي وليس إصدار أحكام وقرارات تؤكد هذا

الوضع، ومن ذلك التميز بين المرأة والرجل في الشهادة والقضاء، وتكليف الرجل بالجهاد الإبتدائي دون المرأة، وغير ذلك مما يؤكد الاختلاف التكويني بين المرأة والرجل، ويرتب عليه الإختلاف التشريعي المطلوب.[1]

ويضيف صاحب كتاب (المرأة هويتها الجنسية وأدوارها الإجتماعية) اعتراضاً آخر على أصحاب هذا الرأي فيقول: أنّ الشهادة التي يتحدث عنها الشارع شهادة حسيّة، تتأتى عن طريق رؤية البصر وسماع الأذن، وليس المقصود منها الاستظهارات الحدسية. وما تفقده المرأة جّراء قلّة مشاركتها في المجالات الإجتماعية هو النضج الإجتماعي، لا الضعف في وظيفة القوى الحسيّة في المجالات الإجتماعية.

وعليه، كان من الأفضل صياغة هذا الرأي بالتقرير التالي:

---

(١) شخصية المرأة، مصدر سابق: ص٢٤٨.

نتيجة قلّة الحضور النسوي في الأصعدة الإجتماعية المختلفة، يتضاءل التركيز لدى المرأة في مثل هذه الأمور، وقد أثبتت التجارب أنّ الإنسان أكثر نسياناً في المجالات التي تقلّ فيها ارتباطاته الذهنية، وينحسر فيها تركيزه وتوجّهه.

وفي مقام الردّ على هذا المدّعى، يجب القول: إنّ تأثير التركيز على قوّة الحافظة وإن بدا صحيحاً، لكن هذا الأمر لا يمكن أن يكون ملاكاً لعدم قبول شهادة النساء، إذ كما إن حضور المرأة في بعض المجالات الخاصة، حتى لا يستهويه التركيز في دقائق كثير من الأمور الجزئية، الى درجة أنّه شاع بين علماء النفس أن النساء أكثر خوضاً في القضايا الجزئية وتركيزاً عليها. ومع ذلك لم يتمخض عن هذا التفاوت إلغاء شهادة الرجال في أمور من قبيل الرضاع مثلاً، أو قلّة التعويل عليها، بل إن مفاد الروايات هو أن شهادة النساء في بعض الموارد، كالرضاع، غير مقبولة، ولا يكتفي بها، إلّا في ما لا يستطيع الرجال النظر إليه، وذلك من قبيل

الحيض، ووضع المولود الذكر.[1]

النظرية الثانية:

حاصل هذه النظرية أن المرأة والرجل متساويان في قوّة العقل، ولكن بسبب غلبة العواطف الضرورية للحياة الزوجية والقيام بدور الأم والزوجة، فإن مجال التعقل عند المرأة هو أقل فعالية بالمقارنة مع الرجل. وعلى هذا، فإن المرأة والرجل يتمتعان بالعقل بصورة متساوية، ولكن العواطف القوية للمرأة تمنعها في بعض الأحيان من استخدامها للعقل. في هذا المجال، وفي قضية شهادة المرأة، فإنه بسبب اعتماد المرأة على العاطفة كثيراً، وذلك يمكن أن يمنع المرأة من اتخاذ موقف صحيح فإن انضمام شاهد آخر يؤدي إلى الاطمئنان. وطبقاً لوجهة النظر هذه، لو أن المرأة تمكنت من كبح عواطفها، فإنها سوف تستخدم قوّاها العقلية

---

(١) المرأة هويتها الجنسية وأدوارها الإجتماعية، مصدر سابق: ص١٠٦.

بصورة متساوية مع الرجل. وجهة النظر هذه تختلف عن الأولى القائمة على تفاوت المرأة والرجل في التكوين وتؤيدها، وتعتقد أن الوضع الطبيعي للمرأة والرجل يؤدي إلى تأثير العواطف عند المرأة على نشاطها العقلي.[1]

وفي هذا الصدد يقول آية الله محمد تقي مصباح اليزدي:

أن المشاعر والعواطف والإنفعالات الطبيعية للمرأة تجعلها سريعة التأثر، وهو ما يدفع بها الى ممارسة الضحك أو البكاء أو باقي الإنفعالات أسرع من الرجل. كما أنّ العاطفة القوية لديها تثبت قدرتها في المجالات التي تحتاج الى مزيد من المشاعر والأحاسيس، وذلك في سياق المحبة والرقة والعطف والحنّو الملازمة لصفة الأمومة، على أنّ غلبة الأحاسيس والعواطف يقلل من القدرة على التفكر وممارسة القضاء وإعمال النظر البعيد عند المرأة، فتعمل روحها الإنفعالية على إضعاف سيطرة العقل وإشرافه على

---

(١) شخصية المرأة، مصدر سابق: ص٢٤٨.

الأمور، ولهذا السبب، غالباً ما يكون قضاء المرأة سطحياً ومجانباً للواقع. بناءً على ذلك، لا دليل ولا شاهد يثبت بشكل قطعي نقص المرأة من حيث الاستعداد العقلي، بل إنّ تفوّق الرجال في القدرة على التعقل معلول لضعف القوى المناوئة له عندهم.(1)

النظرية الثالثة:

المرأة والرجل ليسا متساويين في القدرات العقلية. وحيث إنّ المرأة قد أُختيرت للقيام بنشاطات خاصة طبقاً لمقتضيات الحكمة، فإنّها ليست بحاجة إلى الإستفادة من قابليات عقلية مساوية، فإن التفاوت العقليّ بين المرأة والرجل قابل للتصور في ثلاثة مراتب العقل الأداتي والعقل النظري والعقل العملي، ويجب دراسة كل منها على

---

(1) المرأة هويتها الجنسية، مصدر سابق: ص١٠٨، نقلاً عن محمد تقي مصباح اليزدي، پرسش هاو پاسخ ها، ج٥، ص٢٠-٢٤.

حدة.[1]

إذن على مبنى هذه النظرية يكون التفاوت العقلي بين المرأة والرجل ذو منشأ طبيعي، وهناك تباين في مدى الفائدة من القوّة العقلية، ومن الذين يذهبون الى هذه النظرية العلّامة الطباطبائي فهو يقول: مع وجود العوامل المشتركة المذكورة في وجودها تختلف مع الرجال من جهة أخرى، فإن المتوسطة من النساء تتأخر عن المتوسط من الرجال في الخصوصيات الكمالية من بنيتها كالدماغ والقلب والشرايين والأعصاب والقامة والوزن على ما شرحه فن وظائف الأعضاء، واستوجب ذلك أن جسمها ألطف وأنعم، كما أن جسم الرجل أخشن وأصلب، وأن الإحساسات اللطيفة كالحب ورقة القلب والميل إلى الجمال والزينة أغلب عليها

---

(١) شخصية المرأة، مصدر سابق: ص٢٤٩، نقلاً عن الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٨، ص١٨، ومحمد تقي جعفري، ترجمة وشرح نهج البلاغة، ج١١، ص٢٩٠- ٢٩٩، عبد الله جوادي آملي، المرأة في مرآة الجلال والجمال، ص١٨٥.

من الرجل، كما أن التعقل أغلب عليه من المرأة، فحياتها حياة إحساسية، كما أن حياة الرجل حياة تعقلية.[١]

وهناك رأي للشيخ محمد عبده في هذه الرؤية إذ يقول: خلق الله النساء، وحملهن على ثقل الولادة وتربية الأطفال الى سن معينة، لا تكاد تنتهي حتى تستعد لحمل وولادة، وهكذا فلا يكدن يفرغن من الولادة والتربية. فكأنهن قد خصصن لتدبير أمر المنزل وملازمته، وهو دائرة محدودة يقوم عليهن فيها أزواجهن، فخلق إليهن من العقول بقدر ما يحتجن إليه في هذا، وجاء الشرع مطابقاً للفطرة، فكن- في أحكامه - غير لاحقات للرجال، لا في العبادة، ولا الشهادة ولا الميراث.[٢]

وهنا يقول صاحب كتاب (مسألة المرأة): لقد شغلت

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٢، ص٢٧٥.

(٢) نهج البلاغة: شرح الشيخ محمد عبده، تحقيق عبد العزيز سيد الأهل، نشر مكتبة التحرير: ص١٣٣.

الروايات المذكورة ذهن المفكرين والباحثين والشرّاح وقدّموا في سبيل حل ذلك تحليلات وتوجيهات متناقضة. ويمكننا تقسيمها بنظرة عامة إلى مجموعات ثلاث:

أ- القبول مطلقاً:

اعتبرت هذه المجموعة أن كلام الإمام هذا يشكل أساساً للتعامل مع المرأة، وذكروا نماذج ملموسة للدفاع عن هذا الأساس، واعتبروا أنّ التحدث بهذه الحقائق هو من المصاديق البارزة لصراحة الإمام علي عليه السلام. ثم يذكر آراء من ذهب الى تأييد هذا القول ومنهم ابن ميثم في شرحه لنهج البلاغة، والشيخ محمد عبده أيضاً في شرحه للخطبة الثمانين من النهج، وكذلك الشيخ محمد جواد مغنية وآخرون.

ب- الرفض المطلق:

يتجه بعضهم إلى اعتبار هذا الكلام ظلماً للمرأة وتجنّ

في حق الإمام علي عليه السلام. نعم يرى أن الظروف التاريخية هي السبب في صدور هذا الكلام، ويعتبر أن معركة الجمل هي السبب في صدوره، وذكر أيضاً أن هذا الكلام هو من الآراء الشخصية للإمام علي عليه السلام ولا يمكن أن يشكل ذلك مدركاً للأحكام الشرعية أو لتكوين صورة عن المرأة.

ولذا فإن عمر فروخ يرفض هذا الحكم على المرأة بشكل مطلق:

((نرى مما تقدم أن الإمام علياً قد ظلم المرأة وحمل عليها حمله شديدة، ولكننا في الوقت نفسه نرى سبب ذلك واضحاً بيناً، ولكن العجيب أنه لم ير فيها خيراً البتة، ولا ذكرها بحسنةٍ ولا أشار إليها بمعروف. وعلى هذا تحمل آراء نهج البلاغة على أنها رأي سياسي شخصيّ، لا رأي إجتماعي عام تبنى عليه الأحكام التي تعرف بها المنزلة الحقيقية للمرأة وفي تاريخ الفكر الإنساني))

ج- التوجيه والتأويل:

اتجهت جماعة لتأويل هذا الكلام وتوجيهه، فهؤلاء لم يكن أمامهم مفرّ من التسليم الظاهري بنسبة هذا الكلام إلى الإمام علي عليه السلام من جهة، مع أنهم من جهة أخرى يرون الإمام عليه السلام في مقام أعلى من أن يصدر منه حكم ظالم سواء كان بحق المرأة أم الرجل. ولذا اتجهوا لتأويل وتوجيه هذه الكلمات. وهذه التأويلات والتوجيهات ليست على مستوى واحد من الإتقان والدقة. فقد يتعرض هؤلاء أحياناً للظروف التاريخية، وأخرى يجعلون ذلك مقابل امرأة هي عائشة، أو يجعلونه خاضعاً لتأثير التفكير الجاهلي وغير الديني.[1]

وسنقوم الآن بمناقشة تلك النظريات الثلاث، لنرى هل تصلح بأن تنهض وتكون قادرة على إعطاء تفسير واضح لمعرفة الإختلاف أو التشابه فيما بين عقل المرأة والرجل، أم

---

(١) مسألة المرأة، مصدر سابق: ص٢٢٥ وما بعدها بتصرف.

لا، نحتاج الى إيجاد نظرية جديدة تكون صريحة وواضحة الدلالة في بيان الإختلاف أو التشابه.

الرد على النظرية الأولى

أولاً:

إذا كان المرأة والرجل متساويين في التمتع بالقوى العقلية، وكذلك المقدرة على استخدام هذه القوى في العقل العملي -والعقل النظري- والعقل الآلي الأداتي- فحينئذ على هذا العقل أن يعمل بمقتضى الطاقات والقوة التي يحملها. ولن تستطيع العلاقات الإجتماعية أو كثرة المسؤوليات والإهتمامات من إضعاف القوى العقلية فيهن، وذلك لأمر بسيط وهو؛ لو رفعت عن المرأة تلك المسؤوليات والإهتمامات والإنشغال بأمور الأسرة أو تربية الأطفال، أو السماح لهن بالقيام ببعض النشاطات الخاصة بالرجال، فهل حينئذ تتمكن من مساواة الرجل على سبيل

المثال في القدرة على القيادة، وتحمل القرارات الصعبة أو إيجاد الحلول الفلسفية المعمقة والخوض في المجالات الفكرية الدقيقة، أو هل تتمكن من القدرة على تجاوز لحظات الخوف والفزع بثبات وصلابة، وهل تتمكن من تجاوز العواطف والمشاعر حين نزولها، بإستخدام قوّة العقل فقط؟.

فالتجارب والمحيط الذي نعيشه يجيبنا بعدم قدرتهن على الوصول الى مثل هكذا نتائج، وحتى لو وجدت عند بعض النساء، فإنها حالات نادرة ولا يمكننا التعميم.

إذن هذه النظرية لا تصلح، ولا تستطيع الثبات، لأننا من المفروض نتكلم عن وقائع حقيقية، تمثل مفردات لها بعدها الحركي داخل المحيط الإجتماعي الذي يؤثر على وظيفة كل من الرجل والمرأة، بما يتلاءم مع إستمرار هذا الوجود بشكله المعهود، ولا نتكلم عن أحلام وفرضيات قد تؤطرها لنا تصوراتنا أو أحلامنا في عالم الذهن، لنشكل منها أموراً

واقعية، وهي في الحقيقة تشكل عالم إفتراضي يحركه الجانب الذاتي لا غير.

ثانيـا:

إن الله تعالى عادل ولا يضع الأشياء إلّا في مواضعها، وحينئذ لا يمكن أن يعطي للمرأة عقلاً له من القابليات والقوى الكثيرة ثم يحجب عنها هذه الإمكانات العقلية بسبب أنها قد تعطلت لعدم قدرة المرأة على إستخدامها، بسبب الواقع والضغوط الإجتماعية المفروضة عليها منذ بدء البشرية والى وقتنا الحاضر والى المستقبل، بإعتبار أن الدلائل كلّها تشير الى هذا الأمر، كونه مناسبًا جداً مع ما تريد الطبيعة، وسجية وميول كل من الرجل والمرأة من الناحية العملية.

وعلى هذا كان من الطبيعي وضمن عدالة الله تعالى أن يعطي المرأة عقلاً يناسب واقعها الإجتماعي حتى تتمكن من الحياة بشكل طبيعي، ولا تتعرض لأي قهر وإضطراب

نفسي، بسبب عدم قدرتها من استغلال عقلها بشكل كامل، والإنطلاق بقدراتها العقلية في مجالات أوسع وأرحب، وهذا الأمر غير مقبول لأننا من المفروض، نبحث عن شيء نستدل به على تساوي القدرات العقلية بين الرجل والمرأة، وهذا الأمر بحسب هذا الفرض مفقود هنا.

الرد على النظرية الثانية

حسب هذه النظرية فإن العاطفة هي الحاكمة والمسيطرة على العقل، وعلى هذا الحال يصبح العقل أسيراً لها، وهذا يعني أننا متى ما رفعنا هذه العاطفة وقوتها عن المرأة، استطاعت أن تستخدم عقلها بعيداً عن العاطفة، وحينئذ كيف ستتعامل مع وليدها وتربيتها لأطفالها، أو حتى في تعاملها مع زوجها، بل أن هناك الكثير من الباحثين والمتخصصين يذهبون الى أن الجزء الأكبر من جمال المرأة وأنوثتها هو متعلق بعاطفتها ومشاعرها، ومع هكذا فرض، هل تبقى المرأة هي المرأة، التي يرغبها الرجل، وأرادتها الطبيعة أن

تكون عليه، من أجل التعامل مع المعطيات في هذه الدنيا بالشكل السليم، والذي تحتاج كثير من أدواره المهمة الى تحرك العاطفة بإتجاهه، حتى أنها أصبحت من العلل والأسباب الرئيسية في الحفاظ والبقاء على النوع الإنساني.

إذن العاطفة شيء أساسي زرعه الله تعالى في المرأة وهي كمال وزين لها، وليس نقص، وعندها سيكون من كمال العقل أن يتجاوب في تعامله مع تلك الخصلة الموجودة في النساء، لا أن تصبح العاطفة مانعة له من اظهار طاقاته وقوّاه ولو كانت العاطفة تقف عائقاً في طريق العقل، وتمنعه من استخدام ما يملكه من قوى وطاقات، إذ كيف نجد كثيراً من النساء الناجحات في حياتهن الزوجية، وقد أدّن دور الأم والزوجة، وجميع العلاقات الإجتماعية التي تطفو على سطحها العاطفة بنجاح كامل. ومع ذلك لم يؤثر ذلك على نشاطها ونتاجها الفكري والعلمي، ونراها قد تغلبت في كثير من الأحيان على الرجال من دون أن يوجد أي خلل وتقصير من ناحية العاطفة المحمودة لنجاح النشاطات والأمور التي

ترتكز عليها.

الرد على النظرية الثالثة

في الحقيقة لا يمكن قبول هذه النظرية أو هذه الرؤية بهذا التفسير، وذلك بإعتبار وجود عدّة شواهد إحتفظ بها التاريخ الإنساني الطويل، وما تختزنه ذاكرة الأفراد، وما هو معاش فعلاً الآن، وما نراه ويتداول ضمن صفات حياتنا اليومية من وجود دلائل تعاكس مسألة التفاوت العقلي بين الرجل والمرأة، فإذا كان العقل الذي زودت به المرأة قد خلق بشكل يناسب نشاطاتها الخاصة، وما زاد عنها فلا حاجة بتزويدها بقوى عقلية أكبر، بحيث تكون فائضة عما وجدت من أجله، وفي الطرف المقابل زود العقل الذكوري بقابليات سعتها أكبر بكثير من سعة وقابليات العقل الأنثوي، بإعتبار ان فعالياته ونشاطاته أكثر بكثير من المرأة. فإننا نشاهد العديد من النساء قد أبدعن في مجالات هي بالأساس خارج تخصصهن ونشاطاتهن اليومية -الأسرية والإجتماعية- إذ أنه من

المفروض أن تحصر عقولهن بهكذا نشاطات معروفة ومألوفة لدينا – أو هي قد زودت بقوى عقلية تناسب هذا المقدار ليس أكثر ولا أقل– ولكننا نرى ابداعاتهن في زوايا فكرية وعقلية صرفة، كنيل مراكز علمية مرموقة، والوصول الى أعلى المراحل الدراسية والأكاديمية العالية، مضافاً الى أننا نجد لبعضهن أدوار فاعلة في إيجاد حلول وأفكار قد خدمت بواسطتها البشرية، لا بل هناك أدوار قد أدتها النساء على طول خط البشرية الطويل يعجز الرجال عن القيام بها، إن لم نقل قد إنحصر الدور في تأدية تلك المهمات بالمرأة دون الرجل. بالرغم من أن تلك الأدوار خارجة أصلاً عن تخصصهن ونشاطاتهن الإجتماعية، وقد مارسن أخطر الأدوار التي قد يتعرضن بسببها الى الهلاك والفناء.

وكمثال على ذلك ما قامت به كل من هاجر أم النبي إسماعيل عليهما السلام، وما قامت به أم موسى وأخته وآسيا زوجة فرعون في الحفاظ على حياة موسى عليه السلام، وكذلك ما قامت به مريم عليها السلام، وما قامت به خديجة

وفاطمة الزهراء وزينب بنت علي صلوات الله عليهن أجمعين، فهذه كلها دلائل على عظمة تلك النساء وعظمة عقولهن، بحيث تحملن تلك المسؤوليات الصعاب التي يهتز أمامها الأعاظم من الرجال. فيا ترى من أين جئن بتلك القدرات العقلية، التي هي من المفروض أن تكون أكبر من تلك القدرات العقلية التي وضعها وأرادها أصحاب هذا الرأي؟[1].

إذن هذه النظرية أيضاً لا تصلح ولا تنهض لإعطاء تفسيراً أو بيان الفارق أو التساوي بين عقل المرأة وعقل الرجل.

---

(١) للزيادة حول هذا الموضوع راجع كتابنا (المرأة والرجل عقل واحد أم عقلان) ص٢٨٤ وما بعدها.

نظرية (أوتو فيننجر) عن الذكورة والأنوثة

للألماني (أوتو فيننجر) رأي حول الذكورة والأنوثة يذكره في كتاب (الجنس والأخلاق) ومجمل هذا الرأي: أنه لا ذكورة ولا أنوثة على الإطلاق، وإنما هي نسب تتألف وتتخالف على مقاديرها في كل إنسان، ولا عبرة فيها بظواهر الجوارح والأعضاء، فإذا فرضنا مثلاً أن صفات الذكورة مائة في المائة، فأين هو الرجل الذي تتم له المائة جميعها، بلا زيادة ولا نقصان، وتتآلف ذرات تكوينه واحدة واحدة بلا نشوز ولا إنحراف؟ وكيف تجتمع له هذه الصفات المتفرقة بحيث لا تتخلف صفة، ولا تحمل واحدة محل الأخرى؟ وكذلك النساء أين منهن المرأة التي هي مثل أعلى لجنسها، جامع لكل ما هو نسائي في الجمال والعقل والعاطفة والأعضاء والهندام؟

إن هذا الإتفاق لا يجيء به الواقع، لأن التمام من وراء ما

يبلغه الإنسان أو كائن سواه في هذه الحياة، ولكنها أمور نسبية تدخل فيها صفات الرجولة والأنوثة، كما تدخل فيها صفات سائر الأشياء، فليس في الدنيا رجل هو الرجولة كلها، وليس في الدنيا امرأة هي الأنوثة كلها. وهيهات أن تقع على إنسان فيه كل صفات جنسه في جميع أخلاقه وأطواره، كما تقع كل يوم على قطرة ماء فيها كل صفات المائية التي لابد منها لتكوين كل قطرة، فإن العناصر هنا مقيدة محدودة، أما عناصر الطبائع والأخلاق والمواهب والأجسام فمما لا يقيده الحد ولا يحدّه التقدير، وعلى هذا يحب الرجل المرأة أو تحب المرأة الرجل على حسب ما بينهما من التوافق والتباين في تلك العناصر والصفات، فالرجل الذي فيه ثمانون في المائة من الرجولة وعشرون في المائة من الأنوثة، تتمّمه امرأة فيها ثمانون في المائة من الأنوثة وعشرون في المائة من الرجولة، ويجوز على هذا أن توجد امرأة ليس لها من جنسها إلّا ظواهره، فتكون هي التي فيها الثمانون في المائة من الرجولة، وهي التي تنشد الرجل الذي فيه عشرون في المائة

من صفات جنسه، ومن هنا تنشأ الميول الشاذة في الجنسين وتنبو الطبائع عما خلقت له في سواء التكوين.»[1]

ويمكن الرد على هذه النظرية بما يلي:

عندما يولد الإنسان فأمّا أن يكون ذكراً وأمّا أن يكون أنثى، فإن كان ذكراً فقد حمل كل مقادير الذكورة معه، ويكون مستعداً لها بالقوّة، حتى تكتمل شيئًا فشيئًا لتصل الى مقام الفعل. وكذلك الأنثى تولد وهي مكتملة ولديها مقادير الأنوثة كلها. فيكونان مستعدين فطريًا ليؤدي كلّ منهما دوره الطبيعي في الحياة. وهذا الجانب يسمى بالجانب الوراثي لهما، فهما من هذه الناحية قد ورثا كل صفات ومميزات الذكورة والأنوثة بيولوجيا، ولا يوجد أي نقص في هذا الجانب. فالإنسان يولد أمّا ذكراً، فيكون بايولوجيا قد حمل صفات الذكورة مائة بالمائة، وأمّا أنثى فتكون بايولوجيا انثى

---

(١) فلسفة المرأة: عباس محمود العقاد، نشر دار فوارس، القاهرة، ط١، ٢٠١٦م: ص١٢٣ وما بعدها.

مائة بالمائة.

ثم بعد دور الوراثة يأتي دور البيئة وما تقدمه من طرق وآليات تربوية، وذلك لأن الإنسان يتقوم بمؤثران في حياته، الأول؛ الوراثة وهو الذي يحمل بواسطته كل مقوّمات الذكورة، إذا كان ذكراً، وكل مقوّمات الأنوثة إذا كانت أنثى. ليأتي بعده دور البيئة والتربية وتنشئته الإجتماعية التي يتحمل محيطه الخارجي هذا الدور. والذي تمثله الأسرة ورعاية الأبوين، والمدرسة، وجماعة الأقران، والمؤسسات التعليمية الأخرى، مضافاً الى العادات والطبائع العامة للمجتمع. وهنا سيختلف الأمر عمّا كان عليه في الجانب الوراثي، حيث لا تأثيرات خارجية على هذا الجانب، ففي الجانب التربوي ستتغير اشياء، وتثبت أشياء، حسب نوع التربية وتأثيراتها على الذكر والأنثى. فهنا ممكن أن تتغير طبائع ويكتسب الفرد عادات وتصرفات مرغوبة ومتناسقة مع خلقته، أو يكتسب طبائع وعادات غير مرغوبة، وهنا تظهر الجوانب النسبية في مضمار التربية، فقد يبقى الذكر سائراً في

طريق تربوي متكامل، ينمّي من خلاله ما ورثه من ذكورة ولادية، وبشكل نموذجي، فيصبح والحال هذه ذكراً يحمل صفات الذكورة مائة في المائة، وكذلك الأنثى إذا ما سارت سيراً طبيعياً في طريقة تربيتها، فإنها ستحمل صفات الأنوثة مائة في المائة.

وأنا أقصد هنا بالتربية النموذجية من جميع النواحي الفكرية والعقائدية وثقافة الجسد، وأبعادها العملية في المحيط الإجتماعي والإنساني بشكل عام.

وكلما قلت سبل وطرق التربية عن مستواها المطلوب، أو كانت طرق تربوية منحرفة، قد تظهر بالأفق الذكوري والأنثوي أنماط سلوكية وفكرية تقل من خلالها نسبة الذكورة عند الذكور، ونسبة الأنوثة عند الإناث، وقد تظهر صفات أنثوية مكتسبة عند الذكور، وصفات ذكورية مكتسبة عند الإناث، وتكون مقادير هذه النسب حسب شدّة المؤثر الذي يقع في البعد التربوي.

وهذا النوع من التأثير والتأثر في صفات الذكورة والأنوثة من ناحية الزيادة أو النقصان، أما أن تكون نتائجه مضمرة وكامنة عند الفرد، وقد لا يشعر بها إطلاقًا، أو قد تكون ظاهرة في بعض الأحيان عن طريق بعض التصرفات والإجراءات السلوكية في الميدان الإجتماعي، وبحسب النسب التي تأثر بها الفرد سواء كان أنثى أو ذكراً.

وهنا نريد أن نقول إذا ولد ذكراً، وهو كامل الذكورية من ناحية الوراثة وفي بعده البيولوجي، ومن ثم تربى في بيئة صالحة من جميع النواحي الفكرية والأخلاقية والعقائدية والنواحي الإنسانية الأخرى فإنه سيكون ذكراً يحمل صفات الذكورة مائة في المائة ولن تختفي أية صفة من صفات الذكورة عنه. وعندها سيكون إنسانًا كاملاً قد جمع صفات جنسه، وهذا يمكن أن نستشعره ونلمسه في أوضح صوره عند الأنبياء والأئمة والصالحين والأمثل فالأمثل، ليكون بالتالي مثلاً أعلى لجنسه، ليسعى الآخرون في الوصول إليه بالمقدار المحتمل. وكذلك هذا الأمر يكون مع الأنثى، إذا ما

حصلت على تربية نموذجية وصالحة من جميع الجوانب، فإننا سنرى الأنثى الكاملة مائة في المائة، ويمكن أن نلحظ ذلك في النساء الصالحات في التاريخ وكذلك المثلى فالمثلى، وقد جمعت صفات جنسها، ولتكون بالتالي مثلاً أعلى لجنسها.

وهذا هو المعنى الدقيق لتساوق الإنسان مع الكون الكبير ومفردات الطبيعة التي فيه، بحيث كما أن قطرة الماء، قد حملت كل صفات المائية التي لابد منها لتكوين كل قطرة، كون عناصرها قد قيدت فيها، فكذلك سيكون هناك ذكراً إنسانًا كاملاً، قد وجدت فيه كل عناصر الطبائع والأخلاق والمواهب والأجسام، لتتحد وتتقيد في الإنسان الكامل، الذي يكون وجوده مساوقًا لموجودات الكون الأخرى. وكذلك بالنسبة للأنثى الكاملة.

أمّا مسألة حب الرجل للمرأة أو حب المرأة للرجل، فليس له علاقة بحسب التوافق والتباين في تلك العناصر

والصفات المفقودة أو المكتسبة، ولا لها علاقة بكبر أو صغر النسبة والتباين، وإنّما طبيعة الذكورة المائة في المائة، هي تميل للأنثى، وكذلك طبيعة الأنوثة المائة في المائة هي تميل للرجل، وكلما كانت نسبة الذكورة عالية لدى الرجل، ونسبة الأنوثة عالية عند المرأة، زاد التوافق والتفاهم والإبداع فيما بينهما.

ثم هناك أمر آخر مهم وهو؛ ما وجد شيء في هذا الوجود إلّا وقد استكمل عناصر ومقومات وجوده، فكما أن الكواكب والتراب والماء والهواء والأشجار والأحجار والى غيرها من المخلوقات والكائنات الأخرى قد أدت دورها الوجودي كاملاً، حتى ولو بالإضطرار، فكذلك الله تعالى ما خلق الذكر والأنثى ليوجدا ناقصي المقادير[1]،

---

(١) نحن هنا لا نقصد مثلاً من يولد وهو فاقد لأحد أعضاء الجسد - من ذكر أو أنثى - بل نتكلم عن العقل والروح، بما هما مودعان في جسد ذكوري أو جسد أنثوي. فبالعقل والروح يسمو الإنسان، وليس بأعضاء جسده فقط، فهذه الأعضاء قد يكون بعضها في

وإذا كان هناك نقص بهما، فحينئذ لن نسمي أحدهما ذكراً والآخر أنثى، بإعتبار عدم إكتمال مصداق الذكورة والأنوثة فيهما.

ظروف طارئة مفقوداً عند الإنسان، ولكنه على كل حال يبقى إنسانـاً ولا يتحول الى مخلوق آخر.

نظرية العقل الواحد والتغير الوظيفي

والآن بعد أن عرضنا، عدد من النظريات حول مسألة العقل وتساوي المرأة مع الرجل فيه، أو عدم التساوي والإختلاف، ورأينا كيف أنها لا تنهض في تفسيراتها لهذه المقارنة، أو إيجاد التعاليل التي يعمل كلاهما فيها. فسوف نعرض وجهة نظرنا في هذه المسألة عسى ان تكون مباني لنظرية جديدة نسميها (نظرية العقل الواحد والتغير الوظيفي) لنتقدم خطوة يرفع من خلال فهمها كثير من الإشكالات حول التمايز والفروق بين الذكر والأنثى، ولماذا يعمل كلّ منهما بهذا المستوى المعهود، ثم لنرى بعدها هل يحق لأهل (الجندر/ الجنوسة) المطالبة بالتساوي والتشابه، وتعليل الإختلافات بين الرجل والمرأة الى التنشئة الإجتماعية وتنميطاتها الثقافية، ولا دخل للولادة الذكورية أو الأنثوية في ذلك.

والآن لنبين وجهة النظر هذه:

في الرجل والمرأة يوجد التباين والإختلاف من جهة، وهذا ينبغي أن يكون واضحاً ولا يختلف عليه أحد، وكذلك يوجد الإتحاد والتساوي من جهة أخرى، حيث يتساوى الإثنان فيها من حيث العطاء الإلهي. ومن جملة هذه الأمور (العقل)، فلا إختلاف بين العقل الذكوري والعقل الأنثوي، وإنّما العقل واحد ويعطى لكل منهما بالتساوي، ولكن العقل نفسه سيحكم بعدها بالإختلاف فيما بين الجسدين، وسيقر ويختار الوظيفة المناسبة له، بحسب قابلية الجسد المودع فيه، أو الممنوح له، سواء كان جسد أنثى أو كان جسد ذكري، وهذا الأمر في غاية الأهمية، وعلينا الإلتفات إليه بجد، لأنه سيحل لنا الكثير من الإشكالات والتساؤلات. حيث سيتعامل العقل بالمؤهلات والاستعدادات الماثلة أمامه لا غير، ولن يطلب المزيد، لأنه قد عرف المساحة التي يتحرك من خلالها فهو محدود بها ولا يستطيع التجاوز عنها. وإن حاول أن يتحرك بقابلية الآخر، واستعداده الممنوح له، فهنا سيصبح خلل واضح في البنية

التركيبية للفرد نفسه وللمجتمع، من ناحية العادات والطبائع، أو من ناحية الوظائف المعرفية والعملية لكل منهما.

ولتوضيح هذا المطلب بشكل أوسع:

ما دام الإختلاف والتباين الجسدي موجود، فلابد من وجود وظائف تتنوع بإختلاف النواحي الجسدية، ولابد أن تكون وظيفة العضو الذكري المختلف عن العضو الأنثوي، هي أيضاً مختلفة، وإلّا لما كان أصلاً مسوغ لوجود هذا الإختلاف.

وهذا الإختلاف الجسدي الموجود بين الطرفين لابد أن يهيء أسباباً لأحدهما دون الآخر، يتمكن من خلالها للإنطلاق بمساحة تناسب ما وجد من أجله، ذاك البناء البيولوجي المختلف عن الآخر، بإعتبار أن العضو البيولوجي عند الأنثى لا يتمكن من التحرك بنفس مساحة ذلك العضو عند الذكر.

فالعقل بما هو عقل يدرك تمام الإدراك وهو عند المرأة

بأنه قد جعل في جسد أنثوي يحمل من صفات الجمال الأنثوي ما يحتاج الى عناية خاصة وتفكير يناسب الرقة التي تحملها المرأة فهناك صوت رقيق وجسد ناعم وشعر طويل وجمال وجه أخاذ، وهناك دفء عاطفي، وجسد مزوّد بوسائل الإنجاب والإرضاع. فهنا العقل أمام مفردات عليه أن يتعامل معها بذكاء، وعليه أن يعرف كيف يستغلها الإستغلال التام، حتى يتم الصعود والتكامل من خلال هذا الجسد، وعليه أن يركز بوظائفه المناسبة لهذا التركيب، وهنا عليه قصر النظر على واجباته وحقوقه ويدع النظر لجسد الرجل، لأن هناك عقل غيره بنفس مستواه قد كلّف بقيادة ذلك الجسد والتعامل معه حسب مفرداته، فكما أن عقل الرجل يهتم بما يحتاجه الرجل ويقصر النظر على ذلك، فكذلك العقل الأنثوي يقصر نظره على جسده.

ولكي نثبت أن العقل واحد علينا أن نرجع الى النص والخطاب الديني الذي يتوجه الى العقل، ولنرى هل ميّز بين العقل الذكوري والعقل الأنثوي، بحيث أعطى وبين لكل

منهما خصائصه وسماته، وسعة الفهم لديهما، أم كان الخطاب واحداً، وهو موجه بهذه الأحادية الى كل من الرجل والمرأة، وهنا سنختار عدّة نصوص دينية لنثبت ذلك علمياً:

اولاً: القرآن الكريم:

١ - (كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) سورة البقرة: ٢٤٢.

٢- (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) سورة الأنعام: ٣٢.

٣- (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) سورة يوسف: ٢.

٤- (وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) سورة المؤمنون: ٨٠.

٥- (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) سورة الملك: ١٠.

٦- (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) سورة البقرة: ١٧١.

٧- (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ) سورة الأنفال: ٢٢.

٨- (وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) سورة العنكبوت: ٣٥.

هذه بعض من آيات القرآن الكريم، وواضح أن متعلق الخطاب هو العقل الإنساني الواحد، ولم يميز فيه بين العقل الذكوري أو العقل الأنثوي، فالكلام موجه فيه الى الإثنين بالتساوي كما هو واضح.

ثانياً: نصوص الأحاديث والروايات:

وهي كثيرة جداً وسنختار منها ما يلي:

١- عن أبي جعفر عليه السلام قال: (لما خلق الله العقل(*) استنطقه ثم قال له: أقبل فأقبل ثم قال له: أدبر

(*) إن العقل هو تعقل الأشياء وفهمها في أصل اللغة، واصطلح إطلاقه على أمور:

فأدبر(*)، ثم قال: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحبّ إلي منك ولا أكملتك إلّا فيمن أحبّ، أما إنّي إيّاك آمر، وإيّاك

الأول: هو قوة إدراك الخير والشر والتمييز بينهما والتمكن من معرفة أسباب الأمور وذوات الأسباب وما يؤدي إليها وما يمنع منها. والعقل بهذا المعنى مناط التكليف والثواب والعقاب.

الثاني: ملكة وحالة في النفس تدعو إلى اختيار الخيرات والمنافع، واجتناب الشرور والمضار.

الثالث: القوة التي يستعملها الناس في نظام أمور معاشهم، فإن وافقت قانون الشرع واستعملت في ما استحسنه الشارع تسمى بعقل المعاش وهو ممدوح، وإذا استعملت في الأمور الباطلة والحيل الفاسدة تسمى بالنكراء والشيطنة في لسان الشرع.

الرابع: مراتب استعداد النفس لتحصيل النظريات وقربها وبعدها عن ذلك، و أثبتوا لها مراتب أربعة سموها: بالعقل الهيولاني، والعقل بالملكة، والعقل بالفعل، و العقل المستفاد.

الخامس: النفس الناطقة الانسانية التي بها يتميز عن سائر البهائم.

السادس: ما ذهب إليه الفلاسفة، من أنه جوهر قديم لا تعلق له بالمادة ذاتاً ولا فعلاً. (مرآة العقول للمجلسي)

(*) الأمر بالإقبال والادبار يمكن أن يكون حقيقياً لظهور انقياد الأشياء لما يريده تعالى منها. وأن يكون أمراً تكوينياً لتكون قابلة

أنهى، وإيّاك أُعاقب، وإيّاك أثيب.[1]

ولو وقفنا عند هذا الحديث فسنجد فيه الدلالة واضحة على التعامل مع العقل الإنساني على أنه واحد، ولا يقبل الإثنينية، ثم التفرقة والإختلاف بين الذكر والأنثى، فلقد كان المخاطب واحد؛ فأنظر الى تلك الخطابات:

١- خلق الله تعالى العقل واستنطقه - ولم يقل استنطقهما-

٢- قال له أقبل؛ والنتيجة امتثل الأمر عقل واحد (فأقبل) - ولم يقل فأقبلا-

٣- قال له أدبر؛ والنتيجة امتثل الأمر عقل واحد (فأدبر) -

للأمرين، أي: الصعود إلى الكمال والقرب والوصال، و الهبوط إلى النقص وما يوجب الوبال. (مرآة العقول للعلامة المجلسي)

(١) الأصول من الكافي: أبي جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني الرازي (ت ٣٢٨/ ٣٢٩هـ)، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، نشر دار الكتب الإسلامية، طهران، ط٣، ١٣٨٨هـ: ج١، ص١٠.

ولم يقل فأدبرا-

٤- لم يقل: ما خلقت خلقاً أحبّ إليّ منكما، وإنّما قال: أحب إلي منك.

ثم انظر الى هذا الخطاب الموجه للعقل الواحد: أما إني إيّاك آمر – وإيّاك أنهى- وإيّاك أعاقب- وإيّاك أثيب. ولم يقل: إيّاكما آمر وإيّاكما أنهى و... وفي ذلك دلالة أخرى، وهي مهمة جداً، لأن فيها إشارة واضحة على أن العقل قد خلق ليطيع الله تعالى في أي موقف، وفي أي مكان وضع. فهو سيعمل ضمن المحيط المعطى له، وقد زود بالقابليات والمؤهلات التي يتمكن من استغلال محيطه بالشكل الصحيح سواء كان هذا المحيط جسداً أنثوياً أو كان جسداً ذكورياً، فكلا الجنسين فيهما مساحة الطاعة والعمل مفتوحة، ولن يبرح ويغادر قابليات الجسد الذي اختاره الله تعالى ليضعه فيه. لأنه يعلم بالتالي أن ذلك الجسد يتحرك بقابليات تناسب شأنه، ولن يفلح العقل فيما إذا أراد أن يستخدم طاقات أعلى من حدود الجسد المودع فيه، تماما

كما أن الروح لها قابليات وطاقة لا تهرم أو تشيب بمرور الأيام، ولكن الجسد عندما يكبر ويهرم يصبح عاجزاً عن تلقي حركة ونشاط الروح الشابة، لذلك يخمل وتقل حركته بينما الروح بالرغم من أنها تبقى في حالة من القوة والطاقة التي لا تهرم، تتعامل مع الجسد بوضعه الذي وصل إليه، ولا يمكن أن تتعدى ذلك، لأنها تعقل ما تفعل وما يراد منها بحسب قابلية الجسد المودعة فيه.

ولذلك نحن نرى من خلال هذا الحديث الذي قد أظهر (العقل) بصفة ذلك الخلق المطيع لما يريد الله، ولا يوجد لديه أي إعتراض. وعندما يعرض لنا الحديث بأنه عندما قال تعالى للعقل؛ أقبل، فأقبل، ثم عكس الطلب فقال له: أدبر، فأدبر، هنا بدى لنا العقل كالميت بين يدي الغسال، فهو قد أظهر استعداده لخالقه، بأنه على أتم الجهوزية لتقبل وإطاعة أي أمر يخرج من قبل الله تعالى.

وعلى هذا الأساس يمكن أن نصل الى أن العقل

الإنساني موجود بخلقة وصفة واحدة، وإنّما الله جلّ وعلا وضع هذا العقل تارة في جسد ذكوري وأُمر أن يتعامل مع هذا الجسد بما يحمله من قدرات، وعليه أن يبدع بالجوانب الذكورية، المطلوب من الجسد أن يسير من خلالها في وجوده الدنيوي. وكلما أحسن التصرف مع الجسد الذكوري وبما أراده الله منه، نجى ذلك العقل من العقاب واستحق الثواب، لأنه استخدم كل الطاقات والقدرات المودعة فيه في خدمة هذا الجانب الذكوري، وعلم بأنه غير ملزم بإظهار طاقات وقدرات في جسد ذكوري، وهي أصلاً لا تناسب هذا الجسد، لأنه يفهم ويعي إن تلك الأمور ليست من صلاحياته، وإنه غير مخوّل بها، وإنما تعمل في مكان آخر – أي في الجسد الأنثوي–.

وتارة أخرى نفس هذا العقل يوضع في جسد أنثوي ويؤمر أن يتعامل مع هذا الجسد بما يحمله من قدرات، فهو يعلم المساحة التي وضع فيها وسيعمل ضمن هذه المساحة، ولن يجتازها بحال، هذا فيما لو أراد أن يتكامل ويثاب من

خلال هـذا الجسد. فهـو يعلم بأن هـذا الجسـد الأنثوي رقيق وليس فيه القوى العضلية اللازمة للصراع والمواجهة أو العمل الشاق. ويعلم بأن هذا الجسد قد زود برحم قابل لأن يحمل فيه الجنين، وهو يعلم بأن لهذا الجسد ثديين يستخدمها للرضاعة، ويعلم بأن هذا الجسد فيه نواحي العاطفة والأحاسيس عالية، ويعلم أيضاً بأن من صفات هذا الجسد الجمال والرقة والى غيرها من الأمور. وبما أنه خلق مطيع، وأن الله تعالى قد وضعه في هذا الجسد فعليه أن يصل الى كماله من خلاله. ولا يتم ذلك، إلّا من خلال اتقانه وإجادته لتلك الجوانب التي زود بها الجسد الأنثوي، واستغلالها في كيفية الرضا والقبول الإلهي الذي يصل إليه بواسطة ذلك الجسد. وبالتأكيد فإنه سيكون للشريعة والتعاليم السماوية دوراً مهماً في بيان ما هو المطلوب منه من سلوكيات خاصة عندما يكون قائداً في الجسد الأنثوي، وهي تبين له تكليفه في هذا المحيط الإنسي، ومتى ما خالفه، فإنه سيعيش في شقاء، وقد تدمّر حياته وتُصْبِح وليس لها من قرار.

خلال هذا الجسد. فهو يعلم بأن هذا الجسد الأنثوي رقيق وليس فيه القوى العضلية اللازمة للصراع والمواجهة أو العمل الشاق. ويعلم بأن هذا الجسد قد زود برحم قابل لأن يحمل فيه الجنين، وهو يعلم بأن لهذا الجسد ثديين يستخدمها للرضاعة، ويعلم بأن هذا الجسد فيه نواحي العاطفة والأحاسيس عالية، ويعلم أيضاً بأن من صفات هذا الجسد الجمال والرقة والى غيرها من الأمور. وبما أنه خلق مطيع، وأن الله تعالى قد وضعه في هذا الجسد فعليه أن يصل الى كماله من خلاله. ولا يتم ذلك، إلّا من خلال اتقانه وإجادته لتلك الجوانب التي زود بها الجسد الأنثوي، واستغلالها في كيفية الرضا والقبول الإلهي الذي يصل إليه بواسطة ذلك الجسد. وبالتأكيد فإنه سيكون للشريعة والتعاليم السماوية دوراً مهمـاً في بيان ما هو المطلوب منه من سلوكيات خاصة عندما يكون قائداً في الجسد الأنثوي، وهي تبين له تكليفه في هذا المحيط الإنسي، ومتى ما خالفه، فإنه سيعيش في شقاء، وقد تدمّر حياته وتُصْبِح وليس لها من قرار.

وكذلك بالنسبة للعقل الذي يوضع في الجسد الذكوري، فإنه أيضاً سيسير ضمن ضوابط تحددها له الشريعة والطبيعة التي تناسب ذلك الجسد، من القوّة والصرامة والجلادة وتحمل المشاق، فمتى ما إلتزم بها العقل نجا وتكامل، واستطاع أن يحصل على الإثابة، ومتى ما قصّر في أداء عمله في ذلك الجسد أو حاول أن يفعل أفعال هي تخص الجسد الأنثوي، فإنه سينال العقاب المناسب لذلك.

ولتقريب المطلب أكثر، نشبه الأمر بهذا المثال؛ هناك شخص ما، هذا الشخص في إحدى المرات دعي الى أحدى مناسبات الأفراح، كأن يكون حفلة زواج، فإنه بالتأكيد سوف يتأنق في ملابسه، وستكون مظاهر السرور بادية على شمائله، وسيتكلم، بكلمات الفرح ويهنئ أصحاب تلك المناسبة ويؤدي الأمور الأخرى الخاصة بمثل هكذا مناسبات.

ثم بعد مدّة نفس هذا الشخص أراد أن يذهب لتعزية أحد الأقارب أو الأصدقاء، بسبب وفاة شخص قريب وعزيز عليهم، فهل سيذهب بنفس الملابس ذات اللون البّراق،

وهل سيدخل مبتسماً، وبيده باقة من الورد ليعبّر بها عن سروره وإرتياحه، أم سيرتدي بدلة توحي من خلال لونها بأنه متأثر وحزين، ويلتقي بأهل العزاء بوجه حزين وكلمات المواساة تسبقه وهكذا.

وهنا لماذا إختلف سلوك الفرد في الموقفين، بالرغم من أن الشخص هو نفسه الذي أدى المهمة الثانية، ولم يكن شخصاً ثانياً ليقوم أو يؤدي المهمة الأخرى. ولكنه على كل حال قد أحسن وأجاد التصرف في كلا المناسبتين. وهكذا يمكننا القول في هذا الحال؛ (بأن لكل مقام مقال) و (لكل حادث حديث).

فهكذا هو العقل، إن وضع في جسد ذكوري، كان له تصرف يختص ويناسب ذلك الجسد، وإن وضع في جسد أنثوي كان له تصرف يناسب ذلك الجسد. وفقط في هذا الأمر سوف ينجح العقل في طاعته لله تعالى، وفي هذه الطاعة سيتكامل ويعلو، بإعتبار إنه قد عرف قدره المناسب له، في

أيّ من الجسدين وعمل على ضوئه. لأنه خلق لتعقل الأشياء وفهم مكانها، وكيفية التصرف بها، وهو المدرك للخير والشر والمميز بينهما، وهو الملكة التي تتحرك من خلالها النفس بإختيار الخيرات وإجتناب الشرور، وهو تلك القوّة التي يستعملها الإنسان في ترتيب نظام معاشه وهكذا. وحينئذ ما دامت تلك الأمور عنده وزيادة، فإنه سيختار المصلحة التي يرتقي من خلالها الإنسان، كونه وجد وخلق من أجل الإنسان بما هو إنسان، وبغض النظر عن كون هذا الإنسان ذكر، أم هذا الإنسان أنثى. المهم هو الوصول بهما الى ما أراده الله تعالى لهما من هذا الوجود.

٢- سؤل أبا عبد الله عليه السلام: ما العقل؟ قال: ما عبد به الرحمن وأكتسب به الجنان.[1]

٣- ومن وصايا الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام لهشام بن الحكم: يا هشام من أراد الغنى بلا مال، وراحة

---

(١) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج١، ص١١.

القلب من الحسد والسلامة في الدين، فليتضرع الى الله عز وجل في مسألته، بأن يكمّل عقله، فمن عقل قنع بما يكفيه، ومن قنع بما يكفيه استغنى، ومن لم يقنع بما يكفيه لم يدرك الغنى ابداً.[1]

٤- عن أمير المؤمنين عليه السلام: العقل غطاء ستير، والفضل جمال ظاهر، فأستر خلل خلقك بفضلك، وقاتل هواك بعقلك، تسلم لك المودة، وتظهر لك المحبة.[2]

٥- عن أبي عبد الله عليه السلام: أكمل الناس عقلاً أحسنهم خلقاً.[3]

٦- عن أبي عبد الله عليه السلام: دعامة الإنسان العقل، والعقل منه الفطنة والفهم والحفظ والعلم، وبالعقل يكمل. وهو دليله ومبصره ومفتاح أمره، فإذا كان تأييد عقله من النور

(١) المصدر نفسه: ج١، ص١٨.
(٢) المصدر نفسه: ج١، ص٢٠.
(٣) المصدر نفسه: ج١، ص٢٣.

كان عالمـاً، حافظـاً، ذاكراً، فظنـاً، فهمـاً، فعلم بذلك كيف ولـم وحيث، وعرف من نصحه ومن غشه، فإذا عرف ذلك عرف مجراه وموصوله ومفصوله، وأخلص الوحدانية لله، والإقرار بالطاعة، فإذا فعل ذلك كان مستدركـاً لما فات، وواردا على ما هو آت، يعرف ما هو فيه، ولأي شيء هو ههنا، ومن أين يأتيه، والى ما هو صائر، وذلك كله من تأييد العقل.[1]

٧- عن أبي عبد الله في حديث طويل: (ان أول الأمور ومبدأها وقوتها وعمارتها التي لا ينتفع شيء إلّا به، العقل الذي جعله الله زينة لخلقه ونوراً لهم، فبالعقل عرف العباد خالقهم، وأنهم مخلوقون، وأنّه المدبر لهم، وأنهم المدبرون، وأنه الباقي وهم الفانون، واستدلوا بعقولهم على ما رأوا من خلقه، من سمائه وأرضه، وشمسه وقمره، وليلة ونهاره، وبأنّ له ولهم خالقـاً ومدبراً، لـم يزل ولا يزول، وعرفوا به الحسن مـن القبيـح، وأن الظلمة في الجهل، وأن النـور في العلـم، فهـذا

---

(١) المصدر نفسه: ج١، ص٢٥.

ما دلهم، عليه العقل).[1]

٨- عن أمير المؤمنين عليه السلام: (العقول أئمة الأفكار، والأفكار أئمة القلوب، والقلوب أئمة الحواس، والحواس أئمة الأعضاء)[2]

٩- عن الإمام الكاظم عليه السلام: (إن لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة، وحجة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة، وأمّا الباطنة فالعقول)[3]

١٠- عن أمير المؤمنين عليه السلام: (صديق كل إنسان عقله)[4]

---

(١) المصدر نفسه: ج١، ص٢٩.
(٢) ميزان الحكمة: محمد الريشهري، نشر دار الحديث، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م: ج١، ص٢٦٩٣.
(٣) المصدر نفسه: ج١، ص٢٥٩٥.
(٤) المصدر نفسه: ج١، ص٢٦٩٦.

١١- عن رسول الله صلى الله عليه وآله: (إسترشدوا العقل ترشدوا، ولا تعصوه فتندموا)[١]

١٢- عن رسول الله صلى الله عليه وآله: (العقل نور خلقه الله للإنسان، وجعله يضيء القلب، ليعرف به الفرق بين المشاهدات من المغيبات).[٢]

١٣- عن الإمام الصادق عليه السلام: (ان الله جلّ ثناؤه خلق العقل، وهو أول خلق خلقه من الروحانيين عن يمين العرش من نوره)[٣]

١٤- عن أمير المؤمنين عليه السلام: (الكمال في العقل).[٤]

والآن رأينا كيف عرضت الخطابات الدينية ما يخص

---

(١) المصدر نفسه: ج١، ص٢٦٩٧.

(٢) المصدر نفسه: ج١، ص٢٦٩٨

(٣) المصدر نفسه: ج١، ص٢٦٩٨.

(٤) المصدر نفسه: ج١، ص٢٦٩١.

العقل، وكيف بانت بأنها تتكلم عن مفهوم وقابليات وإمكانات كلها تجتمع في عقل إنساني واحد وليس إثنان، وهذا العقل نفسه سيكون من حصة الرجل، وكذلك من حصة المرأة، ولكلاهما قد رُسِم طريق من سار فيه نجى ومن تخلف عنه هلك، فهذه هي الصورة، وهذا هو وضوحها الذي نتمكن به من إزاحة كثير من الشبهات والإشكالات التي تحاول كثير من الجهات التي تدّعي حرصها على المساواة بين الرجل والمرأة، وتحرير المرأة من تبعات التنشئة الإجتماعية القاسية التي اضطهدت بسببها الأنثى، وتنمّر بواسطتها الرجل، لتخلّف بالتالي صراعات مفتعلة لم تكن يوماً من طبيعة البشر، وإنما حاولت تلك الجهات بإسم التحرر، أن توجد للتشتت والتفرق مكاناً لا تستقر بسببه الأسرة، وليضيع الأفراد في تيه القوانين الوضعية التي سلبت المرأة من بيتها، لتستغلها أبشع الاستغلال سواء في المجون والعهر أو في الأعمال الأخرى التي ترهقها وترهق قواها، بلا رحمة ولا أية شفقة تذكر في هذا المجال. وكلّ

ذلك يجري بإسم التحرر وعدم التبعية. وكما قيل لقد خرجت النساء من عبودية المنزل الى عبودية المعمل.

وقد لاحظ أحد علماء الإجتماع الغربيين (كريستو فرلاش) أنه منذ أواخر الستينيات، أصبح من المستحيل على الأسرة الأمريكية أن تعيش على دخل واحد، أي أنه لتحقيق البقاء المادي، أصبح من اللازم على المرأة أن تصبح (يداً عاملة) و (طاقة إنتاجية) و (مادة طبيعية برانية) وأصبح من الضروري أن تتخلى عن وظائفها الإنسانية التقليدية مثل الأمومة، أي أنه تم القضاء على آخر معقل ومأوى للإنسان، وآخر مؤسسة وسيطة تقف بين الإنسان ورقعة الحياة العامة التي تديرها الدولة وتسيرها المؤسسات الإقتصادية ويوجهها قطاع اللذة.[1]

وفي الصين تعيش ملايين الأسر في حالة إنفصال: يعمل

---

(١) قضية المرأة: د. عبد الوهاب المسيري، نشر دار نهضة مصر، القاهرة، ط٢، ٢٠١٠م: ص١٧.

الأب في جزء من الدولة، وتعمل الأم ومعها الأطفال في جزء آخر، ولا يلتئم شمل الأسرة إلّا مرّة واحدة كل عام، والسبب المعلن هو حاجة الدول الإقتصادية أو المصلحة العامة.[1]

وبمثل هكذا أفعال وهكذا أصوات سوف تتمزق الأسرة، وبالتالي ستنهار المجتمعات، إن لم نصح من نوم الغفلة والتهاون وغض النظر عن تأثير تلك الموجات الفكرية المنحرفة عن خط الفطرة السليم.

عمومًا بقي شيء لابد من ذكره حول (العقل الواحد والتغير الوظيفي) وهو: ان العقل الإنساني وحسب ما ذكرناه من الآيات القرآنية والأحاديث الدينية بخصوص فاعليته وأهميته، وسعة إحاطته وإدراكه للأشياء، والتي أصبح محبوبًا بها عند الله تعالى، هذه الصلاحيات التي أعطيت له، إحتاجت الى شيء تظهر من خلاله هذه القدرات والمؤهلات بشكل كامل وتام، وبما أن الجسد الذكوري لا

---

(١) إنها الأنثى: د. عبد المجيد البيانوني، ط١، ١٤٢٦هـ.

يستطيع أن يُظْهِر كل تلك القوى والطاقات التي لدى العقل، وذلك بإعتبار ميدان الرجولة سعته لا تتحمل أن يؤدي بعض الكمالات. فهيأ للعقل جسداً انثويـاً، وأصبح ميدانـاً جديداً ليمارس العقل ما لم يستطع ممارسته في الميدان الرجولي، وليستغل وجوده بشكل كامل، وليس على نحو الجزئية، ولتظهر بالتالي قدرة الله تعالى وعظمته في إيجاد الأشياء وتنوع عطاؤها. ولكي تتضح لنا أهمية هذا المخلوق – أي العقل– الذي يتمكن من الإحاطة بكل الكمالات الممنوحة له من قبل الله تعالى لعباده، بحيث مهما تغيرت صورها الجسمانية، فللعقل هذا المحبوب عند الله القدرة على قيادة الجسد والتحكم به.

وربما يبرز لنا أمر من خلال هذه النقطة، ولو على سبيل الأطروحة، ويبقى الموضوع مطروح للنقاش، وهو أن الرسول صلى الله عليه وآله ما قال عن فاطمة الزهراء عليها السلام: (هـي بضعة مني، هي قلبي وروحـي التـي بين جنبي،

فمن آذاها فقد آذاني).[١] و (فاطمة شجنة مني، يبسطني ما يبسطها ويقبضني ما يقبضها)[٢]

كما أن النبي صلى الله عليه وآله كان يكنيها بـ (أمّ أبيها)[٣]. إلّا من أجل بيان أن الأمر مرتبط بهذا الذي طرحناه. والله تعالى هو العالم بمجريات الأمور.

---

(١) فاطمة الزهراء من المهد الى اللحد: محمد كاظم القزويني، نشر دار الكاتب العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ ص١٨.

(٢) فرائد السمطين: إبراهيم بن محمد الجويني الخراساني، (ت ٧٣٠هـ)، نشر دار الجواد، سورية، ط١، ١٤٢٩هـ: ج٢، ص٣٣.

(٣) ينظر: كشف الغمة في معرفة الأئمة، للأربلي، ج٢، ص٦٨ ومقاتل الطالبيين، لأبي فرج الأصفهاني: ص٥٧ وفضائل الخمسة من الصحاح الستة للفيروز آبادي: ج٣، ص١٥٢، والبحار للمجلسي: ج٤٣، ص٦١ ح١٥، ومناقب ابن شهر آشوب: ج٣، ص٣٥٧.

العقل غير المخ

نحن هنا عندما نتكلم عن العقل فلا نعني به العقل عند الماديين الذي يطلق كاصطلاح على عدد من الوظائف العليا التي تمارسها القشرة المخية للنصفين الكرويين لمخ الإنسان، وتشمل هذه الوظائف: الوعي- الإدراك- التعلم- الذاكرة- اللغة- المنطق- القدرة على الحكم على الأشياء.

وإنّما نتكلم عن العقل بإعتباره ظاهرة غير فيزيائية وغير مادية، وله عالمه الغيبي الخاص الذي يختلف تماماً عن المخ المادي عند الإنسان، فهو ينتمي الى عالم لا يمكن إدراكه ومعرفة حدوده.

ولزيادة الفائدة والبيان في هذا الموضوع سأنقل لكم ما قاله الدكتور عمرو شريف، ود. نبيل كامل في كتابهما المشترك (المخ ذكر أم أنثى) بخصوص المخ والعقل:

إنصبَّ استعراضنا حتى الآن لظاهرة العقل وعلاقته بجنوسة المخ وبالتفكير والسلوك على الجانب المادي

الصرف، والمتمثل في الجينات والمناسل والهورمونات و الناقلات الكيميائية والمخ... إلخ. وهذه هي النظرة التي يتبناها العلم المادي المعاصر، وأساسها المنهج المادي الإختزالي Reductionism الذي يُشَرِّح الكائن الحي إلى أعضاء ثم إلى أنسجة ثم إلى جزيئات حتى يصل بعد ذلك إلى مستوى الذرات والمكوّنات تحت الذرية، فيكون بذلك قد اختزل الحياة (البيولوجيا) إلى المادة (الفيزياء).

ولا شك إنّ المنهج الإختزالي حين فعل ما فعل واختزل الخلية إلى أدق مكوناتها المادية فإن ظاهرة الحياة التي يدرسها تكون قد إختفت من الخلية أصلاً!!! مما يعني أن الحياة ليست هي الجزيئات أو الذرات.

وتحت عنوان (DNA) كتبا:

حين توصل العلماء إلى أهم اكتشاف بيولوجي في القرن العشرين، وهو اكتشاف تركيب جُزيء الدنا DNA وآلية

عمله[1] ظن كثير من البيولوجيين أن العلم قد اكتشف سر الحياة.

وبعد خمسين عاماً من الأبحاث المضنية زال الإنبهار وبدأ البيولوجيون يرون الحقيقة، وهي أن ((الدنا- DNA)) مجرد جزيء بيولوجي مركب بطريقة مذهلة ويعمل بطريقة مبهرة، بحيث يحتوي على المعلومات الكيميائية التي تحتاجها الخلية لتصنيع بروتيناتها ولنقل صفاتها الوراثية، ولكن ذلك ليس هو سر الحياة. إن ((الدنا- DNA)) كالكلمات المطبوعة على هذه الورقة التي بين يديك، إن الحقيقة لا تكمن في الورقة ولا في حبر الكلمات ولا في كل كلمة منفردة، ولكن في المعلومات التي توصلها هذه الكلمات المطبوعة على الورقة. وهذه المعلومات يمكن أن تسجل على شريط ممغنط، كما في جهاز التسجيل،

---

(١) توصل العالمان جيمس واطسن و فرانسيس كريك في أوائل الخمسينات إلى هذا الاكتشاف وحصلا من أجل ذلك على جائزة نوبل.

ويمكن أن تسجل بمنظومة رقمية على أسطوانة مضغوطة C.D.، كل ذلك لا يهم، المهم هو المعلومات التي تمثلها هذه الرموز.

وتحت عنوان معضلة التصوير Morphogenesis، كتبا:

يرى المفهوم السائد عند الماديين الإختزاليين أن ((الدنا- DNA)) (الذي تتكون منه جينات الخلية) يحدد كل صفات الكائن الجسمية والنفسية والسلوكية.

وقد تأكد حديثاً أن هذه النظرة الإختزالية مفجعة في قصورها، إذا ثبت للبيولوجيين أن الدنا، بالآليات التي تم التوصل إليها حتى الآن، يعجز تماماً عن تصوير الكائن وتشكيله على هيئة معينة morphogenesis (أي تحويله من مجرد معلومات إلى وجود حقيقي). يمكن أن نوضح مفهوم التصوير والتشكيل بطرح مثال يقرّب لنا الصورة: كيف يمكن أن تتحول كلمات نخطها على أوراق نصف فيها

هيئة إنسان مهما بلغت تفاصيلها ودقتها إلى إنسان حقيقي (من لحم ودم)!. لقد أصبح من الضروري الإقرار بأن هناك ((نظاماً ما)) مازال مجهولاً هو المسئول عن هذا التصوير والتشكيل. ولكن كيف؟ ما هو هذا النظام؟ أمجهول مطلق؟.

وتحت عنوان المخ والعقل، كتبا:

وبالمثل، عندما نختزل المخ المادي إلى مكوناته الجزيئية والذرية وتحت الذرية، هل يوصلنا ذلك إلى فهم حقيقة العقل؟ هل يمكننا أن نُرجع المفاهيم المجردة concepts التي تشغل العقل إلى كيمياء وكهرباء المخ، التي هي في النهاية أيونات صوديوم وبوتاسيوم في حركة دائبة عبر جدار الخلية العصبية؟ كيف تمكننا حركة هذه الأيونات من أن ندرك مفهوماً مثل قولنا: ((إن الإنسان هو ذلك الكائن السامي الباحث عن المعنى، المحب للجمال، المنبهر بالمجهول، والمتطلع إلى الحقيقة والحق والخير والعدل)) ؟ إن المخ جهاز مادي يتكون من شبكات بالغة

التعقيد من الخلايا العصبية(١) التي تتعامل كلها- وأكرر كلها- بلغة واحدة وهي النبضة الكهروكيميائية، ويستحيل مهما بحثنا- حتى الآن- داخل المخ أن نعثر على أي شيء يشير إلى ملايين المشاعر والمفاهيم المجرّدة والمعاني العقلية.

---

(١) ينبغي أن نُذكِّر هنا بأن الخلايا العصبية Neurons التي تم التركيز على دراستها لمعرفة وظائف المخ تمثل حوالي 10٪ من خلايا المخ، بينها تمثل الخلايا الدبقية الداعمة Glial Cells حوالي 90% من خلاياه، وقد ثبت حديثاً أن لهذه الخلايا دوراً مهماً في وظائف المخ يتجاوز كثيراً ما تم إكتشافه حتى الآن من وظائف داعمة. كذلك ذكرنا أن (الدنا) الذي أعتبر سقطاً ولا وظيفة له (سقط الدنا) يمثل حوالي 95% من بنية الدنا، إن ذلك يعني أن العلماء بتركيزهم على الجينات الموجودة داخل الخلايا العصبية عند دراستهم لعمل المخ قد ركزوا على حوالى نصف في المائة فقط من مادة المخ!! (10%×5%) مما يعني أن حوالي95.5% من مادة المخ الوراثية لم تتم دراستها جيداً بعد.

إن الفرق بين المخ و العقل كالفرق بين نطق الكلمة ومعنى الكلمة. فالنطق آلية من عالم الطبيعة المادية، إنه عبارة عن صوت مستمر تخرجه الحنجرة على هيئة ذبذبات وإهتزازات في الهواء، ثم يُحدِث الحلق واللسان والشفتان تقطعات في هذا الصوت المستمر لتشكله على هيئة حروف وكلمات، إن الأمر كله فيزياء، هذا هو نطق الكلمات، أما المعنى فهو شيء آخر، فقد يكون تعبيراً عن الحب أو إعلاناً للحرب أو أي مفهوم آخر، إن معنى الكلمات شيء خارج عن هذه الآليات المادية وعن تركيب الكون المادي.

وتحت عنوان الحل عند الميتافيزيقيين كتبا:

لقد بدأ بعض كبار العلماء (انظر كتاب «مسار الخلية)) The way of the cell تأليف ((فرانكلين هارولد)) والصادر عام 2003) يتحدثون عن العجز الكامل عن فهم آلية التصوير والتشكيل Morphogenesis اعتماداً على الدنا فقط، ويتحدثون كذلك عن أن النشاط الكهروكيميائي لخلايا المخ يعجز وحده عن تفسير العقل والسلوك.

ويرى هؤلاء العلماء أنه لا بد من توسيع تصوراتنا لتشتمل على نوع ما من ((المجالات فوق المادية- Supernatural Fields » تكون هي المسؤولة عن التصوير والتشكيل وكذلك العقل والسلوك لكل كائن حي. ويضيف فرانكلين هارولد أنه يظهر من ذلك بوضوح أن الفكر المادي الطبيعي قد فشل في تفسير أو فهم الظواهر الثلاث الكلية وهي الكون- الحياة- العقل.

وللفيلسوف ((دافيد شالمرز- David Chalmers)) بحث قيم، بعنوان : «العقل ومكانته في الطبيعة - consciousness and its place in nature » استعرض فيه الأفكار المعاصرة التي تطرح حول حقيقة العقل.

يرى شالمرز أن هناك سؤالاً أساسياً ينبغي أن يطرح: كيف تنشأ الأحاسيس والمعاني والأفكار المجردة، وما مصدرها؟ ويوضح لنا أنه قد تصدى للإجابة على هذا

السؤال الجوهري اتجاهان رئيسيان، الإتجاه المادي الفيزيائي الذي يفترض أن العقل ظاهرة مادية وأنه من نتاج المخ، وليس هناك شيء آخر غير المخ، وأن كهرباء وكيمياء المخ يمكن أن تفسر لنا العقل وما يمثله من وعي وإحساس وأفكار مجردة.

أما الاتجاه اللامادي اللافيزيائي فيرى أن العقل ظاهرة غير فيزيائية غير مادية، وإن كان على اتصال بالظواهر الفيزيائية. ويرى هذا الإتجاه أن العقل والمخ يختلفان تمام الإختلاف وينتميان إلى عالمين مختلفين، المخ ينتمي إلى عالم المادة، بينما ينتمي العقل إلى عالم غير مادي لا ندرك بتاتاً حقيقته.

وأخيراً تحت عنوان ظاهرة الرؤية المسبقة كتبا:

ومن الأدلة الحاسمة التي يقدمها أصحاب الإتجاه اللامادي ظاهرة الرؤية المسبقة Deja Vu Phenomenon وهي ظاهرة معروفة في علم النفس، بل عشناها كلنا أو معظمنا.

تعني ظاهرة الرؤية المسبقة، أننا قد تمر في حياتنا بموقف ما، ونستشعر أننا قد سبق أن عايشنا هذا الموقف بملابساته وتفاصيله، بل نشعر أن عقلنا قد سبق واطلع في أحلامنا على ما سوف يحدث من تفاصيل!.

إن هذه الظاهرة ترد الاتجاه المادي تماماً، إذ كيف يدرك المخ المادي أمراً لم يحدث بعد بتفاصيله. لقد بسّط الماديون الأمر تماماً ليخرجوا من هذا المأزق، وعلّلوه بأنه مجرد توهم Illusion وأن الشعور بأننا رأينا أو عشنا الموقف بملابساته مجرد شعور أحسسنا به في لحظتها. كما قدم الماديون تفسيراً آخر لهذه الظاهرة وهو أن أحد نصفي المخ قد أدرك الموقف قبل النصف الآخر بجزء ضئيل جداً من الثانية، وعندما أدرك النصف المتأخر الموقف شعر الإنسان بالألفة تجاه ما يرى.

لقد قام البعض، ومنهم كاتب السطور، بتدوين أحلامهم المفصلّة، حتى إذا مرّ بهم موقف استشعروا فيه وجود

((رؤية مسبقة)) رجعوا إلى ما دوّنوه سابقاً، ليجدوا تطابقاً كاملاً بين بعض هذه المواقف التي يحيونها وبين إحدى الرؤى المدوّنة، إذاً فالأمر بالقطع ليس مجرد توهم أو سَبْق أحد نصفي المخ في إدراك الحدث عن النصف الآخر.[1]"

انتهى.

(١) المخ ذكر أم أنثى: د. عمرو شريف، د. نبيل كامل، نشر نيوبوك القاهرة، ط٨، ٢٠١٧؛ ص١٧٥ الى ص١٧٩.

الإمام علي عليه السلام ورأيه بعقل المرأة

بقي شيء طرح في البحوث السابقة من هذا الكتاب حول قول أمير المؤمنين عليه السلام عن النساء صدر عنه بعد معركة الجمل، بأنهن ناقصات عقل، ولم نعط حينها رأينا النهائي حوله، وجاء الآن بعد هذا التوضيح والبيان أن نبين وجهة نظرنا عساها أن ترفع ما يطرح من اشكالات حوله:

عندما أشار علي عليه السلام الى نقصان العقل عند المرأة، فهو ليس في مقام التوهين والتحقير، وإنّما يمكن لنا الآن أن نبين وجهة نظر يمكن لنا من خلالها عبور وتجاوز هذه الإشكالية أو هذه الصدمة، التي يقف قبالها الكثير موقف المتحير، لعدم القدرة على الإجابة عليها لوجود أمور منها:

١- هناك كثير من النساء متفوقات عقليًا على غيرهن من الرجال وبمسافات طويلة، وكثير منهن على مستوى عال من الفهم والنضج العقلي، بحيث يتفوقن على عقول كثير من

الرجال، فكيف والحال هذه يوصفن بأنهن ناقصات عقول؟

٢- إنَّ قائل هذا الكلام هو سيد البلغاء وعظيم الحكماء وسيد الأوصياء، وأمير المؤمنين فكيف نوفق بين قوله، وبين ما نراه من مثل هذه الحالات التي ذكرت في الأمر الأول؟

في الحقيقة انّ الإنسان بغض النظر عن كونه رجلاً أو امرأة فهو يتكون باعتبار من الاعتبارات:

١- القلب

٢- النفس

٣- العقل

٤- الروح

أما القلب، فهو سبب العواطف والإنفعالات، كالحب والبغض والحنان والفرح والرضا، وأي شيء يقع ضمن هذا

السياق.

وأمّا النفس، فالحقيقة هي تعرف بآثارها لا بوجودها، ونعلم بها حضورياً لا حصوليا، وهي سبب الشهوات، مثل الجوع والعطش والجنس وغيرها من الأمور.

وأمّا العقل، فينقسم الى العقل النظري ويطلق عليه أحياناً القوّة العلّامة، وهو إدراك ما ينبغي أن يُعْلَم. والعملي ويصطلح عليه أحياناً بالقوّة العمّالة أو المحركة، أي هو إدراك ما ينبغي أن يُعْمَل، وهناك في الحقيقة الذهن الذي هو سبب التفكير والنسيان. فهناك صورة ذهنية وهي التي يتكلم عنها المناطقة كثيراً، والذهن غير العقل، فهو معلول العقل وليس هو العقل، كما يظن ويتصور، فالعقل هو القوّة الدرّاكة للكليات النظرية والعملية.

وتبقى الروح أعلى من هذه القوى كلّها وهي فوقها، وليس محل النقاش فيها الآن، وهناك قول ينقله الشيخ حسن زاده آملي عن القيصري بشأن الروح: (... إن الروح الأعظم

الذي هو في الحقيقة هو الروح الإنساني مظهر الذات الإلهية من حيث ربوبيتها، لذلك لا يمكن أن يحوم حولها حائم ولا أن يروم وصلها رائم، الدائر حول جنابها يحار، والطالب نور جمالها يتقيد بالأستار، لا يعلم كنهها الّا الله، ولا ينال بهذه البغية سواه.»[1]

وهنا يمكن لنا أن نعرض تساؤل وهو: هل للشيطان نحو علاقة وتأثير على القلب والنفس والذهن والعقل والروح، أم ليس له ذلك، وهو بعيد كل البعد عن هذا المنال؟

وفي الحقيقة خير من يعطينا جوابًا شافيًا هو القرآن الكريم وذلك من خلال أمرين:

الأول: إنّ الله عزّ وجلّ هو خالق الخلق، ويعلم بدقائق الأمور وخفاياها، وقابلياتها كلّها عنده، وهو أقرب للإنسان من حبل الوريد ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ

---

(١) عيون مسائل النفس وسوح العيون في شرح العيون: آية الله الشيخ حسن زاده آملي، نشر مؤسسة انتشارات أمير، طهران، ط١.

الْوَرِيدِ) سورة ق: ١٦.

ولذلك قال عزّ من قائل في أكثر من آية:

- (وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) سورة الأنعام: ٦٨.

- (فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا) سورة الأعراف: ٢٠.

- (فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ) سورة يوسف: ٤٢.

- (فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ) سورة الكهف: ٦٣.

- (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ) سورة الحج: ٥٢.

- (أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ) سورة ص: ٤١.

ففي هذه الآيات المباركات يبين الله تعالى أن هناك للشيطان نحو من أنحاء التدخل والتأثير على بني الإنسان، فيريد ان يحذرك من هذا التداخل والتأثير، ولذلك عليك أن تكون مستعداً للمواجهة.

الثاني: إن الشيطان له خبرة لها من العمق الزمني الشيء الكثير، وقد مارس اثناء وجوده مع الجن ومن ثم مع الملائكة، بحيث شمله الخطاب الإلهي الذي كان موجهاً الى الملائكة بقوله تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) سورة البقرة: ٣٤، وفي هذا الشأن يقول عنه السيد الشهيد محمد الصدر قدس سره: (أصبح ملكاً فعلاً يصدق عليه بالحمل الشائع أنه ملك).[١] وكونه أصبح ملكاً بالحمل الشائع الصناعي، شمله الخطاب، ولعدم تنفيذه لمضمون

---

(١) مواعظ ولقاءات: آية الله العظمى السيد الشهيد محمد الصدر قدس سره، نشر هيئة تراث السيد الشهيد الصدر، بيروت، ط١، ٢٠١٣م/ ١٤٣٤هـ: ص٣٣٩.

الخطاب، خرج من حضيرة الله ورحمته الى غضبه وإنتقامه.

المهم فإن هذه الخبرة التي امتلكها نتيجة رحلته الطويلة في عالم العبادة والطاعة، استطاع أن يشخص الطرق المؤدية الى باطن الإنسان، ومن ثم الوسوسة والإلقاء فيها، وعلم في نفس الوقت على من تؤثر، وعلى أيّهم لا تؤثر، ولذلك قال مخاطباً بغرور: (...وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) سورة الحجر: ٣٩-٤٠، فهو قد عرف بأن هناك عباد مخلصين، توجد حجب تمنعه من الوصول اليهم. ولكن عموماً فإنه علم بإستطاعته التسلط على كثير من الناس، ليكونوا في درب الغواية والضلال.

وبعد أن تبين أن للشيطان تأثير معين على الإنسان، فهنا يعرض تساؤل آخر، وهو على من يؤثر، هل على القلب والنفس والذهن والعقل والروح دفعة واحدة، ويكون له نحو من التسلط عليها كلها، أم لا، يكون له تأثير وعلاقة مع

بعضها وليس كلها؟

في الحقيقة كما قلنا أنه لا يستطيع أن يؤثر على الروح، ولا يستطيع أن يصل اليها لأنها سماء يرجم دونها، وكذلك لا يستطيع الوصول المباشر والتأثير على العقل، لكنه له تسبيب بالواسطة للوصول إليه، ولذلك يقول السيد الشهيد محمد الصدر قدس سره: (نجد أن شياطين الإنس يستخدمون عقولهم بأدق ما يستطيعون في سبيل تمشية شهواتهم الشيطانية).[1]

أما القلب فيستطيع السيطرة عليه بإعتباره، وكما قلنا أنه محط للعواطف. وأما النفس فهي مسيطر عليها لوجود الإتحاد والسنخية ما بين النفس والشيطان، حتى ذهب جملة من العارفين الى أن يقولون: (هي عينه وليست غيره).

وأما الذهن الذي هو سبب التفكير والنسيان، والله يقول في كتابه العزيز: (وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ) سورة

---

(١) المصدر السابق: ص٣٥٠.

الكهف: ٦٣، فهنا يكون النسيان بيد الشيطان وكذلك بيده التذكير، أي التسبب الى تذكر فكرة ما، وكذلك التسبب في نسيان فكرة ما. فيكون الموقف بهذا الشكل: هو يؤثر على النفس بحيث ترغب في الشر وإرتكاب المحرمات، وحينئذ تستخدم الذهن لأجل الوصول الى الحرام.[1]

يحدث هذا على اعتبار أن هناك عدوين للإنسان الأول داخلي وهو النفس الأمّارة بالسوء، والثاني هو الشيطان – ولولا النفس لما استطاع الشيطان أن يخدع الكثير من الناس ويجعلهم ألعوبة- ولذلك فالنفس الأمّارة بالسوء هي الحاضنة الحقيقية لوسوسة الشيطان.[2]

وعموماً بما أن العقل والنفس لهما تجاوب وتبادل

---

(١) المصدر نفسه: ص٣٤٩.

(٢) إصلاح النفس، ابحاث السيد كمال الحيدري، بقلم طلال الحسن، نشر مؤسسة الجواد للفكر والثقافة، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٧م: ص٢٧٢.

ونشاط، أي أن العقل يمكن أن يؤثر على النفس، والنفس تستطيع أن تؤثر على العقل، فالشيطان له باب من هذه الناحية، وهو أن يؤثر على النفس، والنفس تؤثر على العقل، أو مثلاً هو يؤثر على القلب، والقلب يؤثر على النفس، والنفس تؤثر على العقل، بالنتيجة – الشيطان- له طريق الى العقل، وليس منسداً بابه، نعم في مقابل ذلك أن العاقل الذي يعرف جملة من الحقائق له قوّة إرادة ضد هذا المعنى، لأنّه كما أن النفس تؤثر على العقل فتستعبده، كذلك العقل يؤثر على النفس فيستعبدها.[1]

والآن بعد هذه المقدمة علمنا بأن هناك تأثيراً من قبل الشيطان على القلب والنفس، يستطيع من خلالهما أن يصل الى الذهن والعقل، وحينها يستطيع أن يغيّر الكثير من التصرفات والقرارات التي يتخذها أو يخطط لها العقل.

وبمعنى آخر أن الذهن والعقل، حينما يريدان أن يشكلان

---

(١) مواعظ ولقاءات، مصدر سابق: ص٣٥٠.

صوراً ذهنية، ومن ثم اتخاذ ما يلزم قبالها من تصرفات في عالم الخارج ، فسيعتمدان كثيراً على ما يقدمه لهما القلب والنفس – بغض النظر عمّا إذا كان القلب والنفس قلبًا طاهراً ونفسًا مطمئنة أو قلبًا فاسداً ونفسًا أمارة بالسوء- وبما أنّ الطبيعة السيكولوجية للمرأة من ناحية العواطف – كالحب والبغض والحنان- ومن ناحية الشهوات والميل الوجداني تختلف عن الرجل، وهي لشدتها سوف تنجذب وتميل في الغالب بصورة أكثر لمتطلبات الشيطان، على اعتبار أن الفروق بين الجنسين في السلوك متصلة بالمخ، حتى وإن كان التطور العصبي يتوقف الى حد كبير على الخبرات، أي أن معاملة البنين والبنات تستطيع أن تغير في كل من المخ والسلوك.[1]

وفي هذا الصدد يقول ول ديورانت: والمرأة أكثر من

---

(١) ينظر: مدخل علم النفس: لندال دافيدوف، نشر الدار الدولية، الرياض، ط٤: ص٧٧٠.

الرجل تعبيراً، لأنها في الغالب أشد خضوعاً للوجدان والإنفعال، وهذا هو السرّ في أنّها أكثر قبولاً للأمراض العصبية كالكوريا والرجفة والهيستريا والتلبس والخوف والأوتوماتزم والوساطة الروحية.»[1]

ولشدة عاطفة المرأة كما ذكرنا سابقاً، والتي تناغمت وتناسبت مع احتياج الطفل لها، وكذلك حنانها الذي تحتاج له الأسرة، ولوجود آثار وخصال الرقة والجمال فيها. حينئذ سوف يكون باب التعامل معها من قبل الشيطان مفتوحاً بسعة أكبر، مما هو عليه الحال مع الرجال، ولذلك سيستطيع من خلال هذه المدخلية التأثير على العقل عاطفياً ووجدانياً، بحيث يجعله يرى الباطل حقاً، والحق باطلاً، بحسب شدّة وتأثير الموقف، ولذلك أصبح حال المرأة في الشهادة على سبيل المثال لا تتقدم إلّا بامرأتين، فإذا تأثرت

---

(١) مباهج الفلسفة: ول ديورانت، تقديم د. ابراهيم بيومي مدكور، ترجمة د. أحمد فؤاد الأهواني، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٥٥م: ص١٨٨.

احداهن وتلاعبت بعقلها العواطف والهواجس، عسى أن تذكرها الأخرى وتسحبها لبساط الحق والحقيقة.

إذن فالإمام عندما يتكلم عن مثل هذا النقص في المرأة، فهو يتكلم من هذا الباب وليس من باب أن عقلها بما هو عقل مستقل فيه نقص في الخلقة، ويحتاج الى من يكمله، أبداً فإن الخلقة واحدة للعقل عند الرجل والمرأة بلا خلاف، ولكن الإختلاف وجد من جهة المؤثر الخارجي على العقل. أي أنه وجد في فاعلية وقابلية أدواتهما المعرفية والحسية.

وعلينا أن نعلم بأن هذا التسلط من قبل إبليس، هو ليس على نحو الإطلاق والتساوي بالتأثير على جميع البشر، وإنّما في الحقيقة أن معدّه وشرطه – أي تسلط ابليس- هو قابلية النفس لطاعة الشيطان والتعلق بهواه. وعلى هذا الأساس، فإن تأثير إبليس سيكون تأثيراً اقتضائياً على من يعطي نفسه له. وإلّا من لا يعطي ويسلم نفسه له فليس له أي تأثير عليه. وعليه فإن ما ورد في ذم النساء من قبل أمير المؤمنين أو غيره

من المعصومين عليهم السلام، هو على نحو الصفة العامة والمطلقة، أم قابلة للإستثناء؟

والحقيقة يمكن الإجابة عن ذلك من خلال القرآن الكريم، فإننا لو لاحظنا أو نظرنا الى بعض من آياته المباركة مثل: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) سورة الأسراء: ٧٠، فهنا توجد كرامة لبني آدم. وهي كرامة تكوينية، من آثارها أن ينعم الإنسان بكثير من وسائل الراحة نتيجة ما يمتلكه من تفكير، وهذا التفضيل وهذه الكرامة الممنوحة له هي ثابتة ولم تتغير، فالأفضلية لبني آدم موجودة في الحاضر، كما هي في الماضي، وستستمر الى إنقضاء الدنيا وما بعدها. ولكن السؤال هنا هل هي كرامة مطلقة، أم هناك استثناءات، وخصوصاً عندما يخرج الإنسان عن جادة الحق والصواب والتكامل، سالكاً طريق الغواية والضلال والإنحراف.

وفي هذا الصدد يقول الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي

حول آية: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...) ظاهر هذه الآية الشريفة أنّها في مقام تفوق الإنسان في القوّة والإستعداد الوجودي بالنسبة لسائر الموجودات، وليس لإثبات حق للإنسان، بل بالعكس فإنها بصدد بيان هذه النقطة المهمة وهي: أننا قد وهبنا الإنسان الكثير من النعم فعليه أن يؤدي وظيفته في الخضوع والعبودية لله تعالى، وحتى لو افترضنا أنه يمكن من هذه الكرامة التي وهبها الله للإنسان استنباط حق قانوني له. لكن ذلك لا يعني أبداً حفظ كرامته وحرمته حتى لو إرتكب أفظع الجرائم. فأحياناً يصبح الإنسان بتصرفاته الإجرامية أسوأ من أي حيوان آخر... والله الذي أنزل آية (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا...) قد أنزل أيضاً آية أخرى يقول فيها حول الإنسان: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) سورة الاعراف: ١٧٩... وكذلك (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى

لَّهُمْ) سورة محمد: ١٢.[1]

من هذا الباب يكون قول أمير المؤمنين عليه السلام، لا على نحو العموم والإطلاق بالنسبة للنساء، فكما أن الإنسان إذا خرج عن حضيرة الطاعة والإلتزام بالواجبات الشرعية والنواحي الأخلاقية والإنسانية العامة، فإنه لن يكون مشمولاً بالتكريم التكويني، على اعتبار أنّه قد إنسلخ من هذه الكرامة التي منحها الله له بالإختيار، فيتحول كالأنعام بل أضلّ سبيلا.

فكذلك الأمر مع النساء، فالتي تستطيع أن تخرج من شباك الشيطان وتقتل النفس الأمارة بالسوء، والعمل دائمًا للإستجابة للنفس اللوامة، والسعي الحثيث لجعل النفس المطمئنة هي المتسيدة في كيانها. وذلك بإبعاد المصاديق المرتبطة بالقلب عن هوى الشيطان، بإعتبار أنّه ليس له سلطان على الكبريات، فحينئذ ستكون مستثناة من قول

---

(١) النظرية الحقوقية في الإسلام: آية الله الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي، ترجمة خليل عصامي الجليحاوي، نشر دار الولاء، بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م: ج١، ص٢٩٥.

سلطان على الكبريات، فحينئذ ستكون مستثناة من قول أمير المؤمنين، وستدخل في آيات التكريم وحسن التقويم للإنسان بشكل عام، وكذلك في الآيات التي بيّنت فضلهن وكما قال تعالى: (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) سورة الأحزاب: ٣٥، وكذلك: (عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا) سورة التحريم: ٥.

إذن فأعلم إنّ رقة القلب، وهيجان العاطفة، وجمال الهيئة والمنظر، ولين النفس، من لوازم وضع المرأة الطبيعية، وهي في واقعها كمال ذاتي لها، تستطيع متى ما تصرفت بهن تصرفاً صحيحا أن ترتقي الى مراتب الكمال العليا التي

تنافس بهن مراتب الكمال التي هيأها الله عزّ وجلّ للرجال الخواص والكمّل والتي امتازوا بها عن النساء.

أي أن هناك صفات وسمات مشتركة بين الرجل والمرأة يوصلان من خلالهما الى مراتب معينة من الكمال. وهناك صفات خاصة بالرجل دون المرأة وبالعكس، ومن خلال هذه الصفات والتصرف الصحيح معها، والذي غالباً ما يكون للشريعة دخل فيه، يولد تكامل آخر لكل منهما، فمن أحسن التصرف على أكمل وجه، علا على صاحبه، وإن تساووا في حسن التصرف والإمتثال، إرتقى كلا الطرفين بمدارج السمو والخير والبركة، دون فرق بينهما.

المصادر والمراجع

١ - **القرآن الكريم**.

٢- **إكمال المعلم بفوائد مسلم**: الحافظ أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (ت٥٤٤هـ) تحقيق د. يحيى اسماعيل، مصر، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٣- **افلاطون والمرأة**: د. إمام عبد الفتاح إمام، نشر مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٦م.

٤- **أستير**: تشارلز. سو يندل، ترجمة سعيد باز، نشر دار منهل الحياة، بيروت، ط١، ٢٠١٤م.

٥- **الأساطير والأحلام والأسرار**: ميرسيا إلياد، ترجمة حسيب كاسوحة، نشر وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، ط١، ٢٠٠٤م.

٦- **الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل**: الفقيه الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٧- **الإسرائيليات في تفسير الطبري**: د. آمال عبد الرحمن ربيع، نشر دار الثقافة العربية، القاهرة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٨- **الأصول من الكافي**: ابي جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني (ت ٣٢٨/ ٣٢٩هـ) تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، نشر دار الكتب الإسلامية، طهران، ط٣، ١٣٨٨هـ.

٩- **إنها الأنثى**: د. عبد المجيد البيانوني، ط١، ١٤٢٦هـ.

١٠- **إصلاح النفس**: ابحاث السيد كمال الحيدري، بقلم طلال الحسن، نشر مؤسسة الجواد للفكر والثقافة، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٧م.

١١- **بحار الأنوار:** العلّامة الشيخ محمد باقر المجلسي، نشر دار الأميرة، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م.

١٢- **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية:** ميرسيا إلياد، ترجمة عبد الهادي عباس، نشر دار دمشق، دمشق، ط١، ١٩٨٧م.

١٣- **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب:** فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن ابن علي التميمي البكري الرازي الشافعي(٥٤٤-٦٠٤هـ) حققه وعلّق عليه، عماد زكي البارودي، نشر المكتبة التوقيفية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.

١٤- **تاريخ اليعقوبي:** أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي، تحقيق عبد الأمير مهنا، نشر شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

١٥- **تفسير العياشي**: المحدّث الجليل أبي النصر محمد بن مسعود ابن عيّاش السَلَمي السمرقندي المعروف بالعياشي، تصحيح وتعليق السيد هاشم الرسولي المحلّاتي، نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٢، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

١٦- **التحقيق في كلمات القرآن الكريم**: المحقق المفسر العلّامة المصطفوي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٩م.

١٧- **التفسير التطبيقي للكتاب المقدس**: تعريب وجمع صوري شركة ماستر ميديا، القاهرة، ٢٠٠٢م.

١٨- **تفسير المنار**: محمد رشيد رضا، نشر دار المنار، القاهرة، ط١، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م.

١٩- **تسنيم في تفسير القرآن**: العلّامة الشيخ عبد الله الجوادي الطبري الآملي، نشر دار الإسراء، بيروت، ط٢،

١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٢٠- **تحرير المرأة**: قاسم أمين، نشر دار المعارف، القاهرة، ط١، ٢٠١٧م.

٢١- **الجامع لأحكام القرآن**: أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي ، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

٢٢- **جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة**: فراس السواح، نشر دار التكوين، دمشق، ط١، ٢٠١٦م.

٢٣- **جمال المرأة وجلالها**: الشيخ جوادي آملي، نشر دار الكاتب العربي، بيروت، ط١، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٢٤- **الحديث عن المرأة والديانات**: الصادق النيهوم، نشر دار الإنتشار العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

٢٥- **حقوق المرأة في الديانات والمعتقدات:** اعمال مؤتمر الأديان السنوي الثالث لسنة ٢٠١١م بإشراف د. شمران العجلي، نشر دار الحكمة، بغداد، ط١، ٢٠١٣م.

٢٦- **الدولة العادلة يوتوبيا أم واقع:** علي الزيدي، بيروت، ط١، ١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م.

٢٧- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني:** العلّامة شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي (ت ١٢٧٠هـ)، تعليق محمد أحمد الأمد وعمر عبد السلام، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م

٢٨- **شخصية المرأة:** محمد تقي سبحاني، تعريب علي بيضون، نشر مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م.

٢٩- **صورة المرأة اليهودية بين الشريعة والواقع**: جمال صوالحين، نشر دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ط١، ٢٠١٦م.

٣٠- **صحيح البخاري**: أبي عبد الله بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، ترقيم وترتيب الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دار ألفا، مصر، ط١، ٢٠٠٨م/ ١٤٢٩هـ.

٣١- **صحيح مسلم**: أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦- ٢٦١هـ)، ترتيب الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دار ألفا، مصر، ط١، ٢٠٠٨م/ ١٤٢٩هـ.

٣٢- **الضوابط المنطقية**: الشيخ عباس الموسى، نشر مؤسسة الراضي لإحياء التراث، بيروت، ط١، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.

٣٣- **عيون مسائل النفس وسرح العيون في شرح العيون**: آية الله الشيخ حسن زاده آملي، نشر مؤسسة انتشارات ، طهران، ط١.

٣٤- **الفرقان في تفسير القرآن**: د. محمد الصادقي، نشر دار الأميرة، بيروت، ط١، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

٣٥- **الفيلسوف المسيحي والمرأة**: د. إمام عبد الفتاح إمام، نشر مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.

٣٦- **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**: الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣- ٨٥٢هـ)، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز، أخرج أحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، نشر المكتبة السلفية.

٣٧- **فلسفة المرأة**: عباس محمود العقاد، نشر دار فوارس، القاهرة، ط١، ٢٠١٦م.

٣٨- **فاطمة الزهراء من المهد الى اللحد**: محمد كاظم القزويني، نشر دار الكاتب العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ.

٣٩- **فوائد السمطين**: إبراهيم بن محمد الجويني الخراساني (ت٧٣٠هـ)، نشر دار الجواد، سورية، ط١، ١٤٢٩هـ.

٤٠- **فضائل الخمسة من الصحاح الستة**: السيد مرتضى الحسيني الفيروز آبادي، تحقيق المجمع العالمي لأهل البيت، ط٢، ١٤٢٨هـ.

٤١- **القصص القرآني ومتوازياته التوراتية**: فراس السواح، نشر دار التكوين، دمشق، ط٢، ٢٠١٦م.

٤٢- **قصص الأنبياء**: قطب الدين سعيد بن هبة الله الراوندي، اعداد وتنظيم السيد حسين الحسيني، نشر دار المحبين، قم، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٤٣- **قضية المرأة**: د. عبد الوهاب المسيري، نشر دار نهضة مصر، القاهرة، ط٢، ٢٠١٠م.

٤٤- **الكافي**: ثقة الإسلام ابي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي (ت ٣٢٨/ ٣٢٩هـ)، نشر دار الكتب الإسلامية، قم، ط٣، ١٣٦٧هـ.

٤٥- **كتاب العين**: ابي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠ - ١٧٥هـ)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٤٦- **كشف الغمة في معرفة الأئمة**: العلّامة المحقق أبي الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي (ت٦٩٣هـ)، نشر دار الأضواء، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م.

٤٧- **لغز عشتار**: فراس السواح، نشر دار التكوين، دمشق، ط٥، ٢٠١٧م.

٤٨- **المرأة عبر التاريخ البشري**: د. عبد المنعم جبري، نشر دار صفحات، دمشق، ط٣، ٢٠١٤م.

٤٩- - **المرأة في أسفار التوراة** : د. علي عبد الله الجباوي، نشر دار التكوين، دمشق، ط١، ٢٠٠٩م.

٥٠- **من ألواح سومر**: صموئيل كريمر، ترجمة طه باقر، نشر دار الورّاق، بيروت، ط١، ٢٠١٠م.

٥١- **الميزان في تفسير القرآن**: العلّامة السيد محمد حسين الطباطبائي، نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٣، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٥٢- **مواهب الرحمن في تفسير القرآن**: آية الله العظمى السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري، مطبعة الديواني، بغداد، ط١، ١٩٨٩م.

٥٣- **المرأة والرجل عقل واحد أم عقلان**: علي الزيدي، نشر دار سحر القلم، بيروت، ط١، ١٤٤٢هـ/ ٢٠٢١م.

٥٤- **المقدمة:** العلّامة ابن خلدون، نشر دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٥٥- **من لا يحضره الفقيه:** أبي جعفر الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ)، نشر دار الكتب، قم، ط٦، ١٣٨٣هـ.

٥٦- **المرأة في اليهودية والمسيحية والإسلام:** زكي علي السيد أبو غضة، نشر دار الوفاء، مصر، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٥٧- **المرأة هويتها الجنسية وأدوارها الإجتماعية:** محمد رضا زيبائي، ترجمة رعد الحجاج، نشر مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.

٥٨- **المرأة خلقها ودورها الإجتماعي:** مجموعة من المؤلفين، ترجمة أحمد حسين بكر، نشر مركز

الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠١٦م.

٥٩- **مفاهيم عصرية عن فاطمة الزهراء**: علي الزيدي، نشر دار الكاتب العربي، بيروت، ط١، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

٦٠- **ملحمة كلكامش**: طه باقر، نشر وزارة الإعلام في الجمهورية العراقية، ط١، ١٩٧٥م.

٦١- **مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل**: الحاج ميرزا حسين النوري الطبرسي (ت١٣٢٠هـ)، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، نشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام، بيروت، ط٣، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٦٢- **مسألة المرأة**: مهدي مهريزي، ترجمة علي الموسوي، نشر مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م.

٦٣- **ميزان الحكمة**: محمد الريشهري، نشر دار الحديث، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٦٤- **مقاتل الطالبيين**: أبي فرج الأصفهاني، شرح وتحقيق أحمد صقر، نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٤، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٦٥- **المخ ذكر أم أنثى**: د. عمر شريف ود. نبيل كامل، نشر دار نيويورك، القاهرة، ط٨، ٢٠١٧م.

٦٦- **مواعظ ولقاءات**: آية الله العظمى السيد الشهيد محمد الصدر قدس سره، نشر هيئة تراث السيد الشهيد الصدر، بيروت، ط١، ٢٠١٣م/ ١٤٣٤هـ.

٦٧- **مدخل علم النفس**: لندال دافيدوف، نشر الدار الدولية، الرياض، ط٤.

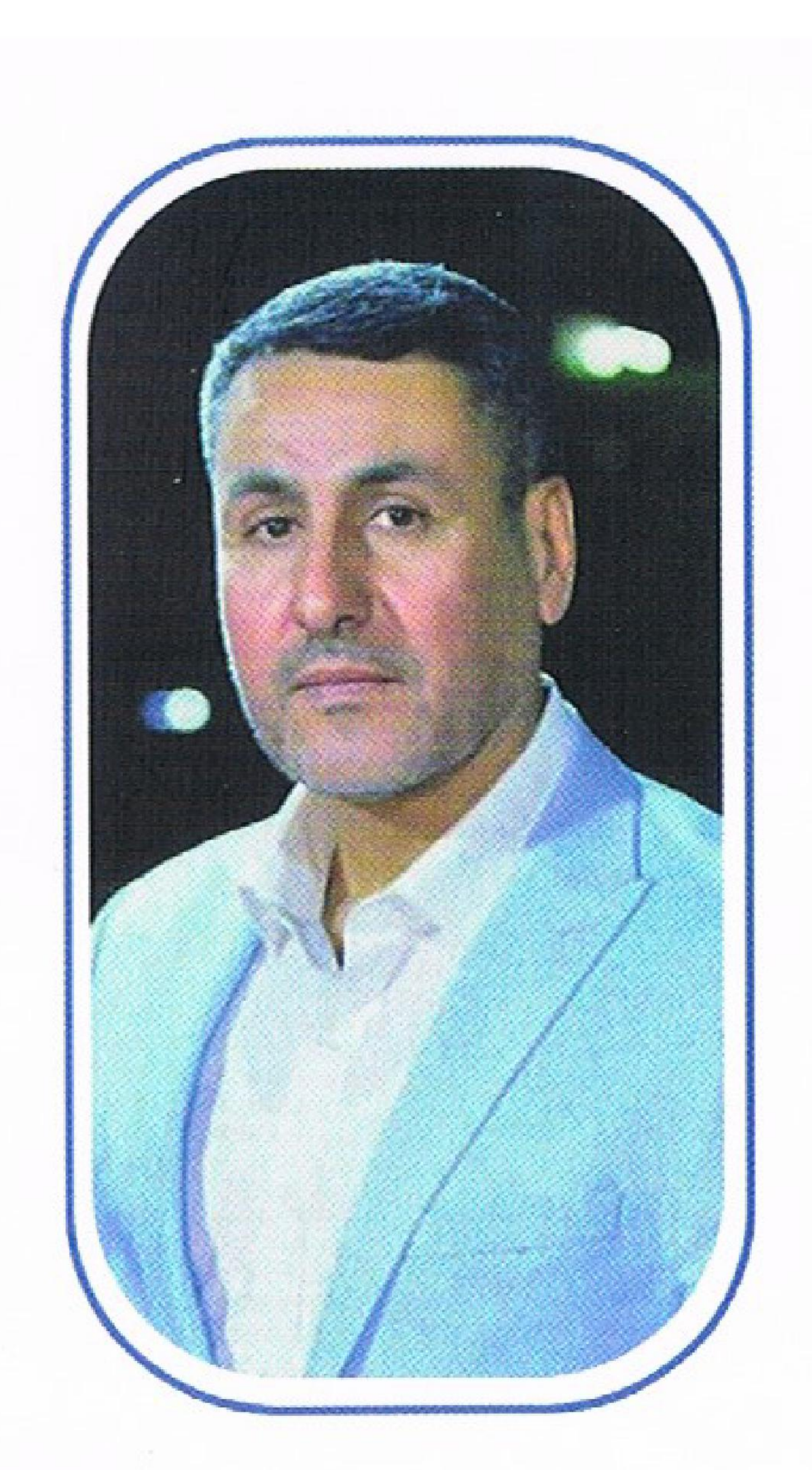
٦٨- **مباهج الفلسفة**: ول ديورانت، تقديم د. بيومي مدكور، ترجمة أحمد فؤاد الإهواني، نشر مكتبة الأنجلو

المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٥٥م.

٦٩- **النظرية الحقوقية في الإسلام:** آية الله الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي، ترجمة خليل عصامي الجليحاوي، نشر دار الولاء، بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٧٠- **نهج البلاغة:** تعليق آية الله السيد محمد الحسيني الشيرازي، نشر دار العلوم، بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٧١- **نهج البلاغة:** شرح الشيخ محمد عبده، تحقيق عبد العزيز سيد الأهل، نشر مكتبة التحرير.



المرأة
في الشرائع الكبرى

اليهودية-المسيحية-الإسلام

شعر كتّاب التوراة واقعاً بأهمية المرأة ،ولا يمكن أن يتغاضوا عن هذه الأهمية ، فهنا إحتاجوا للوصول الى الكيفية التي يمكن من خلالها استغلال هذه الأهمية والقوّة التي تمتلكها المرأة من خلال انوثتها في التأثير على الآخرين ،ولكي لا تصبح هذه القوّة عصية عليهم وغير منقادة لرغباتهم ،عَمدوا الى التقليل من أهمية المرأة عن طريق الدين واللاهوت ، معتمدين على قضايا ميثولوجية تسند ما ذهبوا إليه . وكان أول البوادر لذلك هو إختلاقهم لقضية خلق المرأة من ضلع آدم ، فكان نقصاً تكوينياً لها ،ثم عمدوا الى أيجاد نقص عملي آخر وهو تسبيبها في هبوط آدم من الجنة. ولن يستطيعوا بغير طريق الدين والشريعة من زرع بوادر الدونية والشعور بالنقص الذاتي للمرأة. حتى أن لشدّة تثبيت هذا المعتقد والتمسك به ، أخذ دوره الواضح عند النصارى ،وكذلك تأثر به بعض الرواة المسلمين ، فأخذ كمعتقد لهم في كيفية خلق حواء.

علي الزيدي

